المغامر العاشق

(رواية)

تأليف

جنكو صالح تمو

دار النهج

المغامر العاشق

المُغـــامِر العاشِـــق

تأليف

جنكو صالح تمو

دار النهج

بسم اللّه الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©
الطبعة الأولى
1440هـ - 2019م

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال
دون إذن خطي من المؤلف

الآراء الواردة في إصداراتنا لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها الدار

دار النهج

حلب - سورية
هاتف: 00963 21 222 89 49
فاكس: 00963 21 222 82 37
جوال: 00963 933 33 26 75

الإهداء

إلى أخي الغالي كانيوار في بلاد الغربة...

وإلى أخي ريناس في بلاد الغربة...

وإلى أختي الحبيبة أفين في بلاد الغربة...

وإلى أبي الذي كان يشجّعني دائماً...

الفصل الأول
بائع اللوحات المتجوّل

اعتاد العمّ أبو عمشة في كلّ يـوم سـبت – وبعـد اسـتراحة يـوم الجمعة – أن يتقدّم بعربة دفـعٍ يدويّـة، متوجّهـاً إلى حـارة البراكيـل. وكـان يجـدّد أصـناف بضـاعته في كـل زيـارة مـن تلـك الزيـارات الأسبوعية الرتيبة التي كان يقوم بها إلى الحارة، وكانت معظم البيوت في تلك الحارة مصنوعة مـن الطـين والقـشّ. فعنـدما يقـف النـاظر، ويَحْدِج ببصره من فوق تلّة المطار المرتفعة المطلّـة عـلى الحـارة، كانـت تظهر له تلك البيوت الطينية بأشـكالها وتصـاميمها الحقـيرة، وكأنهـا كومة من القذارة والفوضى، تنتشر بعشوائية فاضحة وواضـحة فـوق المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية المترامية الأطراف.

❋ ❋ ❋

ربما يسأل سائلٌ:

لماذا سمّيت الحارة بهذا الاسم؟

لأن معظم الأهالي الذين يسكنون فيها كانوا من أصحاب عربات تجرّها الأحصنة، وكانت هذه العربات تنقل مواد البناء من حديد، ورمل، وأَسمَنْت إلى المعامل والمشاريع الجديدة قيد الإنشاء. وكانت تُعَدُّ المصدر الوحيد للدخل، والمورد الاقتصادي الأوّل لتأمين لقمة العيش اليومية للأهالي.

وكان منزل الشابّ جنكيز إبراهيم من أقدم البيوت القليلة التي سكنت تلك الحارة المهملة والمنسيّة. وهاهو ذا جنكيز يتذكّر تلك الحادثة التي رواها له أبوه، منذ زمن بعيد، والتي ما زال يحتفظ بها في ذهنه جيداً.

ففي يوم مولد أخيه الصغير، توجّه والده السيد إبراهيم سليمان إلى مخفر الشرطة في المدينة لتسجيل ابنه الصغير. فقال له الشّرطي من وراء طاولته المكتبية الفارهة:

- ما اسم حارتك، يا مواطن؟

وهنا ارتبك العم أبو جنكيز، وظلّ عاجزاً لا يعرف: بِمَ يجيبه؟!!

وفي تلك اللحظات الحرجة، اخترق طنينُ ذبابة كبيرة ذات أجنحةٍ حمراءَ ورأسٍ أخضرَ مدبّبٍ فضاءَ المكتب، فقطعت أجواء الصمت، وراحت تدورُ في حركة دائرية ومنخفضة، وظلّت تحوم وتدور بشراسة وعنف حول رأس الشّرطيّ الملعون، وقد أخفقت دفاعاته اليدوية المتكررة في صدّها آنذاك، وأخيراً حطّت على مدرج أنفه المعقوف، محققةً بذلك النجاح في الهجوم على تحصينات العدو.

فصاح الشّرطي، وللمرة الثانية، بغضب وحنق، بعد أن طرد الذبابة عن وجهه:

- هل أكل الدود لسانك، يا عم إبراهيم؟

أصبح العم أبو جنكيز يهتزّ، من شدّة الخوف والفزع، كما تهتزّ أوراق الشجر حين تهبّ عليها رياح قوية، وشعر بالخجل والحياء من ذكر اسم حارته المعروفة بين الأحياء الأخرى بهذا الاسم (حارة البراكيل).

ثمّ قال العم أبو جنكيز:

- ليس لها اسمٌ بَعدُ، يا سيدي.

فنقر الشّرطي بعصبيّة مفرطة رأس القلم على الطاولة، وقال:

- ما رأيك أن أطلق أنا اسماً على حارتك، يا حشرة؟

ارتعش العمّ أبو جنكيز للمرة الثانية، حين سمع ما نطق به الشّرطي من تلك الكلمات النابية، ثمّ ابتسم في وجه الشّرطيّ ابتسامة صفراء، وقال له:

- نحن رهن إشارتك، وملتزمون بأوامرك، يا سيّدي.

فقال الشّرطي:

- هل تحبّ أن نسميها حيّ الجولان، يا قملة؟

أجاب العم أبو جنكيز في خجل وحياء:

- كما تشاء يا سيدي.

وظلّ الشّرطي يدمدم بكلمات نابية بذيئة تتطاير من بين أسنانه البيضاء: حقراء، سفلة، أولاد الزنى...

ثم قال هذا الشّرطي الملعون في انتصارٍ ساحق:

- إذن اسم حارتك أصبح منذ الآن وفق القيود الرسمية المدونة في سجلات الدولة (حيّ الجولان)، ثمّ أطلق العنان لضحكة ملعونة وخبيثة قائلاً:

- فلتكن بدل التي فقدناها.

ومنذ تلك الحادثة التي جرت مع العم أبي جنكيز، أصبحت الحارة معروفة بحي الجولان. ولكنها ظلّت -في الوقت ذاته- محتفظة بالاسم القديم، وإلى يومنا هذا.

❋ ❋ ❋

ثمّ تابع بائع اللوحات المتجوّل تقدّمه مع عربته اليدويّة إلى عمق الحارة أكثر فأكثر، في خطوة متقدّمة تارة، متقهقرة أخرى، وقطرات العرق المتتابعة تتصبّب من شعره الأبيض، وتجري على جبهته العريضة، سائرة بين قسمات وجهه، سالكة طريقها على طرفي أنفه الأفطس، لتنتقل بعنف وغزارة إلى العنق الطويل الذي يشبه ساق شجرة البامبو، لتستقر أخيراً على صفحة صدره، بين الأدغال والأجمات الرمادية والسوداء العطشى. هكذا كان حال العم أبي عمشة العجوز السِّتّيني، بشعره الأبيض الوقور، وعينيه السوداوين اللتينِ تلمعان بوميض العهر والفسق.

وأخيراً تسمّرت العربة تحت نافذة غرفة الشاب جنكيز في منتصف الشّارع، وصار العم أبو عمشة يصرخ ويصيح بأعلى صوته: لوحات.. لوحات، يا أهل الحارة. فخرج جنكيز مسرعاً من البيت، وتوجّه نحو العربة وقال له، وهو يحدّق إلى وجهه:

- كيف الحال يا عم؟

لم يسمح شرود العمِّ أبي عمشة له أن يردّ على سلام الشاب؛ لأنه كان ينظر إلى الطرف الآخر من الشارع، حيث بيت الخالة موجة البحر التي كانت تغسل رصيف الشّارع -كما تفعل في كل يوم- فتبدو للناظر تفاصيل أعضاء جسدها المثير، وكان يتحلّق من حولها مجموعةٌ من الأولاد الصغار ذوي الملابس الرثّة البالية ذات الرقع الكثيرة، فبدا العدد في عينيّ الشاب جنكيز ضِعف هذا العدد، كما أنه رأى هرّةَ الخالة موجة البحر التي ولدت حديثاً هي الأخرى مجموعة من القطط الصغيرة. وفي تناغم حادٍّ وقوي، كان يختلط مواء القطط مع بكاء الأطفال، فتشكّل لحناً شجياً تتألف كلماته من الفقر والبؤس والأسى، بكل معنى من معاني المأساة الإنسانية.

شعر الشاب جنكيز إبراهيم، في تلك اللحظة بالرغبة في الغثيان والتقيؤ من أعماق معدته، عندما رأى ذلك المشهد المروّع والفظيع من الفقر، وهو يتمثّل أمامه بأقبح صوره وأبشعها آنذاك.

وقال جنكيز في نفسه: «يا لقساوة قلوب البشر!! أيّ قانون يحكم العالم؟ هل هو قانون الغاب.. المشاعيّة.. الهمجيّة.. البداءة»؟ وكلّ هذا كان يجري على بُعدِ بضع خطوات منه. فتأثّر كثيراً، وحاول أن

يحتفظ بدموعه، ولكنّ رغبته في البكاء كانت هـي الأقـوى والأشـد، فأخذ يبكي ويرثي لحال الخالة موجة البحر وأولادها الصغار.

أمّا العمّ أبو عمشة فقد كان يرمق بنظراته العاهرة مؤخرة الخالـة موجة البحر المدوّرة والمرتفعة، وربلتي ساقَيها البيضاوين المكشوفتين له، غير مبالٍ بتلك الحالة الإنسانية، فكل إنسان في هذه الحيـاة يفكّـر، ويحسّ إحساساً مختلفاً عن الآخـر، ويبقـى التنـاقض قـائماً بـين تلـك الثنائيات، التي تشكّل جوهر الحياة الحقيقيّة، من الخير والشر.. الفقر والغنى.. القبح والجمال.. الجنة والجحيم.. الحلال والحرام... فصراع الله والشيطان في استمرار دائـم عـلى وجـه الأرض، وتجـري المعركـة بعنـف وشراسـة بيـنهما في قلـب الإنسـان، وداخـل أسـوار الـنفس البشرية، ويبقى الصراع قـائماً بـين تلـك الثنائيـات المتناقضـة، حتـى تتغلّب الواحدة على الأخرى، ثمّ يكون النصر للحق عـلى الباطـل في النهاية، أو للخير على الشرّ، وتتحقّق بذلك العدالة الإلهية العليا.

وكان العم أبو عمشة الداعر يُدندِن بينه وبين نفسه فيقول:

- آه يا موجة البحر الهائجِ، آه على هذه المؤخرة المرتفعة مثل جبل الجودي، وهذه السيقان الطويلة، وتلك النهود البارزة ذات الحلـمات البنّيّة الكبيرة، وهذه الأرداف العريضة، والخصر الضـيق مثـل بلـورة لمبـة الكـاز، آه وألـف آه!! كـان يقـول ذلـك مـن لهفـة قلبـه الممـزق

والموجوع عليها.

قال الشابُّ جنكيز في نفسه:

- إذا كان هذا العجوز الداعر في هذه السنّ داهية من الـدواهي، فكيف كان في شبابه يا ترى؟!

وأخيراً أحسّ العجوز بوجود الشاب جنكيز، وهو يرمقه شزراً، فسأله:

- هل زوج موجة البحر مسافر؟

فقال له الشّاب جنكيز:

- وكيف عرفت ذلك، يا عم؟

- درستُ فنون الدّجل والسّحر الأسود، يا بني.

ثمّ تابع العم أبو عمشة:

- وهل تعيش خالتك مع الأولاد الصغار فقط؟

- نعم.

أراد الفاسق الشّبِق أن يعرف مِنَ الشّـاب جنكيـز كـل شيء عـن جارته موجة البحر، فسأله قائلاً:

- ماذا يعمل زوج موجة البحر، يا جنكيز؟

- يعمل سائقاً على مركبة طويلة.

- ومتّى يعود إلى البيت؟

- تقصد العمَّ عيسى؟

- أجل، بالضبط.

- يأتي إلى المنزل كل ثلاثة أشهر تقريباً.

توقّف جنكيز برهة من الزمن، ونظر حوله، وقال بصوت خافت:

- الخال عيسى مُصاب يا عمّ.

- ماذا تقصد؟

- لقد أصيب في عموده الفقري في أحد حوادث السّير في أثناء العمل.

- وهل يجلب الكثير من النقود؟

- لا.

- ماذا يفعل بالمال إذن؟

- يذهب على الدوام إلى الطبيب للعلاج.

- وما مرضه أيّها الشّاب؟

- أصيب بعجز جنسيّ نتيجة ذلك الحادث.

- كنتُ أعرف ذلك.

- كيف عرفت، وأنت لم ترَه أو تسمع عنه من قبل؟

- ألم أقل لك، يا بُني: إنني عرّاف؟

- صدقت يا عمّ.

لقد أصبح العمّ الدّاعر مطّلعاً على الملفّ الشخصيّ الكامل للخالة موجة البحر، من خلال المناقشة التي دارت بينه وبين ذلك الشاب، عند عربة الدفع اليدوية.

ولكنّ الشّابّ جنكيز كان يرى حالة الفقر المدقع التي كانت تعيشها جارته أمراً، والشرف والعفة أمراً آخر، أمّا هذا العجوز الفاسق فله وجهة نظر مختلفة؛ إذ كان يرى، في فقر الخالة، جداراً واطئاً يمكن تسلّقه في أيّة لحظة، وبكلّ سهولة. وعلى الرغم من تلك المأساة، كان الشّاب جنكيز يرى جارته أمّ الصغار تتمتّع بالعفة والطهارة النقيّة، وكانت مثل سور عالٍ شامخ.

ثمّ سأل جنكيزُ العمَّ أبا عمشة بكل تواضع واحترام:

- ما هذه اللوحات المغلّفة، يا عمّ؟

ردّ العمّ العاهر، وآثار الانتصار السّاحق بادية على وجهه؛ لأنه عرف أن الخالة وحدها مع صغارها وصغار القطط قائلاً:

- معي أجمل لوحات النِّساء في العالم.

أجاب الشّاب جنكيز، وهو متوتّر الأعصاب:

- دعني أرى لوحاتك الجميلة، يا عم.

سحب العجوز الخَرِف، بحركة كوميديّة خرقاء، لوحةً من بين تلك اللوحات التي كانت على العربة، وفكّ الغلاف عنها، وقال له انظر:

- هذه لوحة فاطمة المغربيّة، حسناء الشّرق، ولديّ أيضاً لوحة فاطمة صالح آغا، ولوحة قشما كلعو.

وتابع الفاسق أيضاً:

- لكلّ واحدة من بطلات هذه اللوحات قصّة في تاريخ شعوبها والعالم، فواحدةٌ تُمثّل قصص الجمال، وأخرى تمثّل قصص الحب، وثالثة تعطي عِبَراً في الشّجاعة.

نظر الشابّ إلى اللوحة بدهشة وإعجاب بالغَين، وقال:

- بحقّ الله، إنّ عيني لم ترَ أجمل منها، حتّى الآن.

في تلك اللحظة، رفع العجوز السّتّيني خصلةً من شعره الأبيض، كانت فوق جبهته العريضة، وقال:

- هذه من أجمل اللوحات المتبقّية عندي من البضاعة.

دقّق الشّاب جنكيز في الصورة بإعجاب منقطع النظير، وقال

باستغراب:

- يا إلهي إنها شطرُ قمرٍ، هَوى من السّماء إلى الأرض.

ثمّ ربّت العمّ أبو عمشة بحركة بلهاء كتف الشّاب جنكيز قائلاً له:

- خذِ اللوحة، ولا تتردّد يا بني، فأنت شاب، وهي ستملأ أيامك بالفرح والسّرور.

قال الشّاب جنكيز:

- على بركة الله.

أجاب الفاسق المنحرف:

- على بركة الله، يا جنكيز.

في فرحٍ جنونيّ عارم، حمل الشّاب مغتبطاً اللوحة الجميلة، وحين وصل إلى باب منزله، استدار نحو عربة اللوحات، وقال:

- الدفع يوم السبت القادم.

أومأ العجوز بحركة من اليد:

- حسناً.

وضع جنكيز إبراهيم اللوحة الحسناء تحت إبطه الأيمن، ثمّ فتح باب البيت، وولج إلى الداخل، وجلس على حافة السّرير، وضع

اللوحة على حِجره، وراح يرنو ببلاهة ودهشة إلى الجدران الأربعة، في مسح دائري منتظم، لاختيار الجدار المناسب لها، وكان فخوراً متحمّساً بهذا الإنجاز الرائع، لأنه أصبح يمتلك الآن في منزله، لوحةً لأجمل امرأة في العالم، ويريد أن تكون قريبة منه، ليُشبع نظراته النهمة والجائعة من هذا الجمال الأخّاذ، وكان يسمع من وراء قفصه الصدريّ دقّات ناقوس قلبه الهشّ، بمتعة وعذوبة، في ظلّ هذه الوحدة المعزولة، ومع أجمل لوحة، يمتلكها الآن في بيته، واستمرّ يتساءل:

- أين أضع اللوحة، وعلى أيّ جدار أثبّتها؟

فردّ على نفسه:

- لا، على الجدار تفقد اللوحة خصوصيتها، وكلّ من يأتي إلى هنا سيسترق النّظرات إليها بطرف العين... من الأفضل، إبعاد هذه الفكرة، والبحث عن حلٍّ آخر أكثر خصوصية. وفجأة قال:

- فلتكن وراء الرأس، وعلى مسند السّرير.

فردّ على نفسه ثانيةً:

- كلا، فهذا المكان أيضاً غير مناسب، ولا يليق باللوحة الجميلة.

ووضع رأسه بين راحتَي يديه، وقال في نفسه:

– يا إلهي، يا مجيب الدعوات، ماذا فعلت بحالي؟

وبدأ القلق والتوتر ينهشانه من الداخل، كما ينخر السُّوس الأسنان. تسمّر الشابّ جنكيز في وسط الغرفة، يقرفص ويقوم، ثمّ يتقدم إلى الأمام نحو الباب، ثمّ يتراجع إلى الخلف، وفجأة لمعت فكرة عجيبة في ذهنه، فقال:

– عليّ أن أنزل إلى السّوق، لشراء حامل من أجل لوحتي الحسناء.

انطلق الشّاب جنكيز إلى السّوق، وتوجّه نحو أقرب محلّ نجار (موبيليا)، ثمّ عاد إلى البيت، ومعه منصب للّوحة يشبه المنصب الذي يمتلكه الرسّامون، وكان يغمره زهوّ عارم في تلك الوهلة، للحصول على حاملٍ للّوحة بهذه السهولة.

ولكن المشكلة أو المعاناة مع اللوحة لم تنتهِ عند هذا الحد؛ إذ تساءل أيضاً:

– بماذا سأغطّي لوحتي الجميلة؟

قال في نفسه:

– بمُلاءة السّرير.

– ليست بالفكرة الحسنة.

لم ترقه تلك الفكرة، وبدأ يفكّر بحلّ آخر، ثمّ قال:

– بقطعة جريدة قديمة؟

– لا. فهذا شيء مقزّز، سيُفقِد اللوحة جزءاً كبيراً من بهائها وجمالها.

وأخيراً قال في نفسهِ:

– قطعة من القماش المخمليّ الأحمر تفي بالغاية، وتليق بلوحتي الجميلة.

وعلى الفور، غطّى الشّابّ جنكيز لوحته الجميلة بقطعة من القماش الأحمر، فأضحت في عينيه أجمل من لوحة الموناليزا العالمية.

الفصل الثاني
أصدقاء المعهد

– أنا جنكيز إبراهيم من القامشلي.

وتراجع إلى الخلف.

– وأنا كريم أحمد من الرميلان.

ثمّ أومأ برأسه، وقال:

– وهذا سامي نوري من الدرباسية. وهذه القطة الحسكاوية تمر حنّة.

كانت تمر حنّة ذات العيون اللوزية، والقوام المتناسق تقوم بحركات حيوانية خفيفة ورشيقة تشبه حركات القطط في شهر شباط.

ونظر كريمٌ إلى يساره، وقال:

– وهذه نسرين الدلوعة من عامودا.

أومأت نسرين برأسها ممتنّة من أسلوب كريم في تقـديم أصـدقاء المعهد للتعرّف إلى بعضهم، ثم قالت بغنج ودلال:

- شكراً.

كان كريم صغير الحجم، أنيـق المظهـر، ذا بشـــرة بيضــاء ناعمـة الملمس، وشعر أسود لامع، وأسنان ناصعة لؤلؤية، مـا أضـفى عليـه طابعاً مميزاً؛ إذ كانـت تنجـذب إليـه أشرس الفتيـات خـلال دقـائق، وكان يُعَدّ كازانوفا عصر الفيس، والواتس آب، والمسنجر.

وكان كريمٌ ذا حظّ حسن؛ إذ يوقع كلّ من يصادفه بسرعة بشِباك لسانه العذب، وكلامه المعسول، وسحر جاذبيته من حيث مواصـفات جسده وأناقة ثيابه، فكان حين يخاطب مَن أمامه يجعله في غيبوبة دائمة.

وكان كريم صياداً ماهراً، يصطاد الفتيات المراهقات والشبقات، وكان يملك سرعة الضفدع ذي اللسان الطويل اللزج، عند اصـطياد فريسته بالمكر والخداع. هكذا كان كريم أحمد في أول يـوم مـن حفلـة تعارف الأصدقاء بمدينة الحسكة.

* * *

كانت بيوت مدينة الحسكة غير منتظمة وتتنـاثر بفـوضى، فضـلاً عن قذارة شـوارعها. وكانـت تكثـر فيهـا الـدرّاجات الناريـة، فهـي

وسيلة المواصلات الأساسية في هذه المدينة. وكان يتوضّع فيها مركـز المحافظة، ومديرية التربية التعليمية، والمؤسسة العامة للكهرباء.

وكانت مدينة الحسكة أصغر من مدينة القامشلي، وعموماً فإن المناطق الشمالية الشرقية، تصنّف من المناطق النامية والمتخلّفة من حيث البنية التحتية وكذلك التعليم، ولا يوجد فيها شيء مميَّز من بنايات عالية ذات طوابق متعددة، أو حدائق عامة كبيرة، أو حتى مطاعم فخمة من درجة خمسة نجوم عالمية، وكذلك ينعدم فيها وجود (مولات) للتسوق.

لذا تعدّ مدينة الحسكة المورد الاقتصـادي الأول، وسـلّة الغـذاء الأساسية لجميع أبناء البلـد، وتوجـد حقـول الـنفط الخـام بكثـرة في منطقة جبسة بالحسكة، ومنطقة الرميلان التابعة لمدينة القامشلي.

* * *

اجتمع أصدقاء السنة الأولى بالمعهد المتوسط الزراعي أمام بـاب شؤون الطلبة، وكان الشابّ جنكيز، لا ينظر نحو صـديقاته الفتيـات الجديدات، لأنه كان فتى حييّاً خجولاً، لا يملك أدنى ذرّة من الشـجاعة في كسر حاجز الخوف للتحدّث مع الفتيات وملاطفتهنّ أو مغازلتهنّ.

أمّا كريم أحمد فكان يتحدّث بطلاقـة من دون خجل إلى نسـرين الدلوعة مرّة، وإلى القطّة الحسكاوية الشبقة تمر حنة مرة أخرى، وكان

بين فينة وأخرى يغمز لهما بحواجبه المشذّبة، وكأنه يعرفهما منذ سنوات خلت.

فتعجّب الشاب جنكيز إبراهيم بدايةً من التصرّفات والحركات التي كانت تجري من حوله، وشعر في تلك اللحظة بالقنوط واليأس يسريان في جسده، ثمّ شعر بموجة من الحسد والكره تغطّي نفسه تجاه ما كان يقوم به كريم آنذاك، ولا سيّما أنّه أصبح النجم اللامع في ذلك الوقت؛ إذ كان –فضلاً عن جماله– لبقاً ولطيفاً، ويتعامل مع جميع الأصدقاء الجدد برقّة وحنان.

❋ ❋ ❋

عاد الشاب جنكيز بمخيّلته إلى الوراء، قبل أن يأتي من مدينة الحبّ، إلى مدينة الحسكة من أجل الدراسة في المعهد، حين كان طالباً في الشهادة الثانوية، وكان في دورة تقوية لمادة الكيمياء، وتذكّر كيف طلبت منه فتاة الدورة الوحيدة دفتر المادة، كي تنقل منها الدروس التي فاتتها بسبب غيابها عن الدورة لبضعة أيام، وفي اليوم الذي أعادت فيه الدفتر إليه، حصلت مفاجأة كبرى، حيث وقعت الفتاة الشقراء في حبّ الشاب جنكيز من النظرة الأولى، ولم يكن الشاب جنكيز ليتوقّع هذا ولو في الأحلام؛ إذ كتبت حينها الفتاة بعض العبارات العاطفية التي تشي بحبّها له، وتنمّ على هيامها به، وكان

يتخلّلها بعض الأشعار في العشق والغزل.

خفق قلب الشابّ جنكيز إبراهيم بوتيرة متسارعة، وكاد أن يقفز من بين أضلاعه، وأخذ يسمع ضربات جريان الدم في صدغيه، وكان الشاب جنكيز نحيلَ الجسم، وعيناه عسليّتين بلون العسل القاتم، ذا أنفٍ كبير، وشعر أسود مجعّد، وقد لازمه الخجل والحياء منذ الصغر، وحتى مرحلة البلوغ، فضلاً عن طيب القلب، وشغفه بالموسيقا؛ إذ كان ينفعل لأيّ لحن شجيّ، فتنزل دموعه مدرارة من مُقلتي عينيه، وتسيل على صفحة وجهه بلا توقّف.

أصبح في تلك الأيام، خائر القوى فاتر العزيمة، لا يعرف ما يفعل تجاه هذا الحب الجحيمي الفجائي الذي طرق باب قلبه من دون الاستعداد له وبلا توقّع، فجاء كضربة قصمت ظهر البعير. وفي اليوم التالي من دورة التقوية، جلس بجانب فتاة الدورة، مطأطِئ الرأس، زائغ البصر، مكدَّر النفْس، في حين ظلت الفتاة ترنو إليه بطرف العين، وبريق العشق القاتل يشعّ من نظراتها الساحرة، وكانت ترتسم على شفتيها ابتسامةٌ برائحة زهرة القرنفل، تعبق ذلك المكان بتلك الرائحة الذكيّة العطِرة.

* * *

وفجأة أخرجه من حلم اليقظة ذلك الصوت الأجشّ لكريم أحمد حين قال:

- دعنا نذهب، يا شباب إلى كافتيريا المعهد.

وتابع كريم:

- هل أنتم موافقون؟

أجاب الشاب جنكيز:

- أنا سأدفع تكاليف الكافتيريا.

نطَّ كريمٌ من بين الأصدقاء المجتمعين، أمام باب شؤون الطلبة، بقفزة مثل قفزة الكنغر الأسترالي، وقال بصوت رنان:

- ألا تعرف، يا صديقي جنكيز، أنَّ اسمي كريم، وأنا الذي عليّ الدفع.

ضحك أصدقاء السنة الأولى في أصوات متداخلة على تعليق صديقهم.

* * *

عاد جنكيز إلى شطحات الخيال، واسترجع تلك التجربة الفاشلة في الحب مع فتاة الدورة، التي كانت البادرة في زرع تلك البذرة من الحب في قلبه، ولكنّ عقدة الخجل والحياء كانت تقف حجر عثرة في

وجه ذلك الحب الوليد الهشّ الذي بدأ من الطرف الآخر، وهذا أصعب أنواع الحب وأخطرها، وسرعان ما بدأ لهيب الحب المكتوم يحرق قلب الشاب الخجول ويكوي فؤاده، وراح يوماً بعد يوم ينمو فيزيده عذاباً، وقال في نفسه:

- ماذا أقول لها؟ وكيف أردّ على عباراتها العاطفية التي خطّتها لي على دفتر تقوية مادة الكيمياء؟

كان الشاب جنكيز يذوب مثل الشمعة، بعد أن سيطرت صورة فتاة الدورة على كامل مساحة التخزين في قرص عقله، وفي يوم تالٍ من أيام الدورة، أخبره صديقٌ له في نفس الدورة، أن صديقة تلك الفتاة أخبرته بما تشعر به من عاطفة الحب والغرام تجاه الشاب جنكيز، ومع هذا لم يجرؤ -في ذلك الوقت- على الاعتراف لها بحبه المجنون.

❋ ❋ ❋

تقدّم الأصدقاء الخمسة تغمرهم فرحة عارمة إلى صالة كافتيريا المعهد، وكان صوت المطربة اللبنانية «أليسا» يصدح من (إستريو) الصالة، وهي تغنّي الأغنية الرومانسية:

«عبالي حبيبي

عبالي حبيبي

أغمرك ما أتركك

أسرقك ما أرجعك

أحبسك ما طلعك

من قلبي ولا يوم

أخطفلك نظراتك

ضحكاتك حركاتك

علقن بغرفتي.. نيمن ع فرشتي...».

وكانت الصالة ممتلئة بالطلاب. فتوجّه الأصدقاء إلى الطاولة الأخيرة، وأخذوا أماكنهم حولها. فقال جنكيز:

- الصداقة الحقيقية مثل الأخوّة.

أجاب البدينُ سامي نوري من الدرباسية:

- أنا أعدّ الصداقة أثمن شيء في الوجود.

علّقت القطة الشبقة:

- تقصد يا سامي كنزاً لا يفنى!؟

- نعم، يا قطتي الجميلة.

قاطعت نسرين الدلوعة، حديث الأصدقاء قائلة:

– كلامكم صحيح يا أصدقائي، بشـــرط ألا تكـون قائمـة عـلى مصلحة شخصية.

تدخّل كريم، فقال:

– هل علاقة الحب بين شخصين –أقصد الغرام– من الممكن أن تتحوّل إلى صداقة؟

أجاب الشاب جنكيز:

– بل علاقة الصداقة تتحول إلى عشق وحبّ مع مرور الأيام.

– تقصد الصداقة تصبح حبّاً؟

– نعم.

– والحب لا يتحول إلى صداقة؟

أجاب الشاب جنكيز إبراهيم:

– بالطبع.

قامت الشابة الدلوعة نسرين، وقطعت النقاش في حديث الصـداقة قائلة:

– هيّا نحتفل بتعارف الأصدقاء.

❊ ❊ ❊

عادت الذكرى تعصف بذهن الشابّ جنكيز، وهو جالس وسط الأصدقاء في كافتيريا المعهد، على هيئة ملاك جدّد أحزانه وهمومه في صورة فتاة الدورة، لأنه عرف في قرارة نفسه كيف تعذّبت المسكينة، وهي تعاني من مرارة تجربة حبّ من طرف واحد، من دون أن يعترف الطرف المقابل والشريك الجبان بحبّه لها على الملأ، أو اعترافاً واضحاً صريحاً، وبقي في ذلك الوقت يتعذب ليلاً ونهاراً، ويتألّم من أعماق قلبه المجروح، وهو يرى الفتاة تحاول مراراً أن تشدّ انتباهه بقصّة حبّها له، ولكن لا حياة لمن تنادي، فقد ظلّ هذا الشاب الخجول عاجزاً عن البوح لها بحبّه الجارف، ولم يَرْوِ ذلك الحبَّ الوليدَ بماء الاعتراف وقطرات الغزل لينمو وتزهر براعمه في ربيع ذلك الوقت.

* * *

أيقظَ خادمُ الكافتيريا صاحبُ الوجه الدميم الشابَّ جنكيز من حلم اليقظة، حين وقف أمام الطاولة، وسألهم:

- ما طلباتكم يا شباب؟

ردّ كريم أولاً:

- كابتشينو، من فضلك، يا سيدي.

فقال الشاب جنكيز من بعده:

- بيبسي بارد، يا سيدي الكريم.

وتقدّم الخادم من الشابّة نسرين، وخاطَبَها:

- وأنتِ يا آنسة، ماذا تطلبين؟

أجابت نسرين الدلّوعة:

- كابتشينو من فضلك.

أمّا سامي نوري والقطة الحسكاوية فقالا معاً:

- شاي بالحليب من فضلك.

انصرف الخادمُ القصيرُ ذو الشعر الجعِد والأذنين المتراخيتين كأذنَي الكلب بعد تسجيل طلبات طلاب السنة الأولى في المعهد على دفتر صغير، ثمّ اختفى وراء (الكونتوار).

لفتت انتباهَ الشابّ جنكيز، وهو دقيق الملاحظة مرهف السمع، طلباتُ الأصدقاء، فهو الوحيد الذي طلب بيبسي، وفكّر وتنهد عميقاً، ولو كان يملك ذرّة واحدة من الجرأة والشجاعة لكانت حبيبته الشقراء التي تَعلّق بها في الدورة جالسة الآن إلى جانبه بين طلاب السنة الأولى على طاولة كافتيريا المعهد، ويتحدث معها برقّة ولطف، ويعاملها بكلّ حبّ واحترام، مثل جميع هؤلاء الأصدقاء الجالسين معه الآن.

لقد قرّر الشاب جنكيز- بعد النجاح في الشهادة الثانوية والفشل في البوح للفتاة الشقراء بالحب- الهربَ ذليلاً تعيساً من مدينة الحب قامشلي، إلى مدينة الحسكة، وقد كتب القدر عليه أن يتعرّف إلى هؤلاء الشباب الجالسين معه على طاولة كافتيريا المعهد الزراعي، بحيّ الكلاسة في مدينة الحسكة.

قال كريم أحمد، وهو ينظر إلى جنكيز:

- أين ستسكن، يا صديقي جنكيز؟

أجاب الشاب جنكيز:

- لم أتّخذ القرار بعد بخصوص السكن.

ابتسم كريم بخبث، وقال:

- أمّا أنتِ، يا نسرين فأمورك محلولة، ولا تحتاجين إلى بيت للإيجار.

ردّت الشابة نسرين القادمة من عامودا:

- نعم، هناك سكن جامعي للفتيات.

وتابعت الدلوعة العامودية، بصوت طفولي مرح:

- هل تريد، أن تسكن معنا؟

دوت أصوات ضحكات عالية في أرجاء صالة الكافتيريا، ومنذ تلك اللحظة، أُعجب الشاب جنكيز بشجاعة كريم أحمد، الذي

استطاع أن يخترق حاجز العلاقة الرسمية مع فتيات المعهد بتلك السرعة. فتقرّب منه، وجعله صديقه الحميم، واستأجر غرفة مجاورة لغرفته في دوار الصالحية.

ويوماً بعد يوم كانت تزداد الصداقة بين كريم وجنكيز قوّة وإخلاصاً ووفاء، حتى أصبحت أقوى من رابطة الأخوّة الدموية، فباتا لا يفترقان عن بعضهما، لا في المعهد ولا في الشارع ولا في الحيّ، إلا في أيام العطل، وقضيا معاً قرابة عامين دراسيين في سعادة وتعاون وتناغم ومحبة.

الفصل الثالث

الحـــادث

توالت الأيام مسرعةً، وهكذا هي حال لحظات السعادة تمضي سريعة، ولا نحسّ بها، وأزفت ساعة الرحيل، وعودة كل صديق إلى موطنه.

خرج الصديقان الحميمان جنكيز وكريم من دوّار الصالحية مشياً على الأقدام، حاملَين على أكتافهما حقائبهما المملوءة بالثياب الوسخة، وبعض كتب المعهد، وكذلك بعض الأدوات الشخصية. وكانت الساعة الجدارية، آنذاك تشير إلى الحادية عشرة مساءً، وكان المطر رذاذاً خفيفاً، والأرض أصبحت زلقة من تحت أقدامهما، وكانت السماء الرمادية من فوقهما -بين لحظة وأخرى- تلمع فيها ارتعاشات البروق ودويّ قصف الرعود من بعيد.

توجّها إلى كراجات تل حجر، وكان الصمت يخيّم عليهما على

طول التدرّج في ذلك الجوّ الكئيب، وكانت رحلة (البولمان) حوالي الساعة الثانية عشرة مساءً، وهي قادمة من حلب- الحسكة- القامشلي، وعند اقتراب جنكيز وكريم من كراجات تل حجر، أخرج الشاب جنكيز الجوّال من جيبه، ونظر إلى الوقت فيه، فكانت الساعة الحادية عشرة والربع، فأخذ نفَساً عميقاً، وقال:

- ما زال أمامنا ثلاثة أرباع الساعة على انطلاق الرحلة.

أومأ كريم برأسه، وقال:

- بالتأكيد.

ثمّ أضاف كريم أحمد:

- ها هو باب الكراج، يا جنكيز.

قال الشاب جنكيز:

- نعم، ها هو الباب.

كان الصديقان يسيران في منتصف الشارع، تحت الأضواء الغازيّة المشتعلة ذلك الوقت، وكانا يسمعان صوت نعيق بومة من بعيد، يخترق سكون ذلك الليل المظلم.

❊ ❊ ❊

فجأة توقّفت سيارة بيضاء عابرة من نوع (كيّا سيراتو) بجانبيهما، وقال سائقها:

- السلام عليكما.

ردّ الصديقان بأدب واحترام:

- وعليكَ السلام، ورحمة الله وبركاته.

ثمّ فتح سائقُ السيارةِ زجاجَ النافذة، فدخل تيّار من الهواء البارد جعل السائق ينتعش، وتابع الحديث قائلاً:

- هل أنتما من مدينة عامودا؟

نظر جنكيز إلى كريم، ثمّ نظر إلى سائق السيارة البيضاء، وقال له:

- ولماذا تتوقّع، يا سيدي، أننا من مدينة عامودا؟ هل تعرفنا؟

ضحك السائق كاشفاً عن لثته السوداء المتخشّبة، وعن طقم الأسنان الاصطناعية، وقال:

- أهل مدينة عامودا لا يمشون على الرصيف، بل في منتصف الشارع.

فقال كريم:

- هل أنت متأكد مما تقوله عن أهل عامودا؟

- بكل تأكيد، يا بني.

فردّ عليه الشابّ جنكيز:

- لقد خاب ظنّك يا سيّدي، فنحن لسنا من عامودا.

بُهت السائق من ردّ جنكيز، وضغط على دوّاسة البنزين، وأقفل زجاج النافذة المفتوح، ثمّ أومأ برأسه في إشارة الوداع الأخير إلى الصديقين، وانطلق مسرعاً، وابتلعته الظلمة بلحظات، ثمّ اختفى عن الأنظار نهائياً.

* * *

وأخيراً، وصل الصديقان إلى ساحة الكراج، فتوجّها إلى مكتب قطع التذاكر. تقدَّم كريم أحمد أولاً إلى شباك القطع، وكانت الموظّفة فتاة سمراء ذات قوام رشيق، وجهها حسن تزيّنه غمّازة على خدّها الأيمن، وتزيد حُسنه ابتسامة رقيقة، فراح الشاب جنكيز يراقب باهتمام وذهول كازانوفا عصر الإنترنت، وفي ثوانٍ قليلة تمكّن «كريمو» من فكّ شفرة فتاة مكتب القطع، وأخذ منها رقم الجوال، ثمّ قطع تذكرتين له وللشابّ جنكيز على رحلة (البولمان) القادمة من حلب- الحسكة- القامشلي، وربّت كتف جنكيز قائلاً:

- دعنا نجلس ريثما تصل الحافلة إلى الكراج.

قال الشاب جنكيز ببلاهة ودهشة:

- حسناً.

وضع الصديقان حقائبهما الظهرية أمامهما على الأرض، وفوراً بدأ كريم البحث عن شبكة (واي في)، ثمّ قال لجنكيز:

- انظر الآن، وراقب فقط ماذا سيحصل؟

فسأله جنكيز:

- هل أخذت الرقم منها؟

- نعم.

تابع كريم:

- وهي أخذَتْ رقمي أيضاً.

وهل يخفى عن الشاب جنكيز إبراهيم قدرات ذلك الصياد الماهر القادر على اصطياد الفتيات الصغيرات والكبيرات؟! فذلك أمر سهل ممتع له، إنه شجاع مغوار لا يخاف شيئاً، ويملك بين أضلاعه قلباً حديدياً، وكان الشاب جنكيز يرى في صديقه كريم عملة نادرة الوجود.

رنّ جوّال كريم، وخفق مع نغماته قلب الشاب جنكيز، فقرّب كريم شاشة الجوال من وجه جنكيز، وقال له انظر بنفسك:

- ما اسمك؟ وأين تسكن ؟

وبلمسات رشيقة وسريعة من رأس الأصابع ردّ كريم على الفتاة السمراء ذات الغمازات:

- أنا الدكتور كازانوفا الواتس والفيس.

ومضَت الشاشة برسالة أخرى بعد لحظات في رنين جديد:

- هههههه.

ثمّ ضغط كريم على أزرار الجوّال، وكتب لها رسالة نَصّها:

- اسمي كريم أحمد، وأنا من الرميلان.

- وماذا تفعل هنا في مدينة الحسكة؟

فردّ عليها برشاقة وسرعة:

- أنا طالب في المعهد المتوسط الزراعي، وذاهب في استراحة إلى بلدي.

شعر الصياد بعدم ارتياح صديقه الشاب جنكيز، فقال له:

- لماذا لا تغامر أنت أيضاً مثلي؟

- لا أملك الجرأة، يا صديقي.

- إنها لعبة مسلّية وممتعة.

- لا يمكنني فِعل ذلك.

– جرّب لمرة واحدة، وستنطلق بعدها.

– قلت لك: إنها لعبة خطرة.. وقاتلة أيضاً.

فقال كريم عابساً:

– ما الخطر في ذلك؟ أنا أعرف أن الناس جميعاً –صغاراً وكباراً– يمارسون هذه اللعبة. فهلّا بيّنتَ لي أين تكمن خطورتها؟

– لا يمكن تجاوز الخط الأحمر.

– فهمت، تقصد مسألة الشرف والعرض؟!

– أجل، لقد أمسكت بطرف الخيط، يا كريم.

– يا صديقي جنكيز، مواقع التواصل الاجتماعي سهّلت كلّ شيء، فمارِسِ اللعبة عليها، ولا تخَفْ.

تَبِعَ نقاشَهما صمتٌ قصير، ثمّ لمعت شاشة جوّال كريم، وصدر منه رنين آخر مُعلناً وصول رسالة جديدة. فقال كريم لصاحبه:

– انظر يا جنكيز.

كانت صورة خلاعية تخدش الحياء، لفتاة مكتب قطع التذاكر. فردّ جنكيز في خجل وحياء:

– فقدنا الأخلاق من وراء الإنترنت.

– أنت متخلّف وجاهل، يا صديقي جنكيز.

- تقول إنّي متخلّف وجاهل؟!

- نعم، فعليك أن تتقن اللعبة قبل فوات الأوان.

- إيههههه.

- يا صديقي جنكيز، الزمن يجري كالماء من بين أيدينا، ولهذا يجب أن تدركه منذ هذه اللحظة. ويمكن أن ننجب ولداً على الواتس آب، أو الماسنجر.

- هل أنت جادٌّ فيما تقول؟

- بكلّ تأكيد.

- ماذا لو كان الوليد ذكراً؟

أجاب كريم مبتسماً :

- سأسميه (واي فادي).

- وماذا لو كانت الوليدة أنثى؟

- سأسميها (واي فاديا).

أقفل كريم أحمد جوّاله بعد كتابة رسالة أخيرة قال فيها:

- باي حبيبي.

وبعد ثوانٍ وصلت آخر رسالة نصية، أجابته فيها:

- باي حياتي.

نظر كريم إلى صديقه جنكيز المرتبك من الخوف، ثمّ قال له:

- أنت بحاجة إلى المعالجة من هذا المرض المزمن.

- وما الدواء برأيك؟

أجاب الدكتور كازانوفا:

- القوّة والشجاعة هما الدواء، أيها الصديق الجبان.

- اشرح لي أكثر من ذلك، فأنا لا أفهم مقصدك.

- بليد أيضاً!!!

- بالضبط.

- يجب أن تكون قويّاً كالأسد حين يهجم على الفريسة، وينهش بأنيابه الحادّة جسمها.

- هل تقصد أن أكون مثل الحيوانات؟! نحن بشر، يا دكتور كازانوفا، وتريد دعم نظرية صديقك تشارلز داروين في أصل الأنواع، بأن أصل الإنسان نوع خاص من القرود؟

ابتسم كريم أحمد، وقال:

- هناك أشخاص كثيرون نعيش معهم، وهم أصدقاؤنا الآن، وهم يُشْبِهون القرود بالشكل.

نظر الشاب جنكيز إلى صديقه كريم، وقال:

- ماذا أُشبهُ أنا من الحيوانات؟

- أنت من فصلية الكلاب، يا صديقي. حسب نظرية داروين.

ثمّ أضاف الشاب كريم:

- أيها الصديق الجبان، إذا كنت تريد أن تحصل على مفتاح قلب الأنثى، فعليك أن تطرق باب غرفة قلبها بقوّة وشجاعة، فإنّ الخوف والتردّد ينفّران الأنثى منك. ثمّ حاوِلْ عدّة مرات متتالية أن تطرق ذلك الباب، حتى تفتح لك باب قلبها، وتصبح السيد الآمر الناهي لها.

وقف الشاب جنكيز أمامه، وبدأ يصفّق له:

- ممتاز.

فقال له كريم:

- شكراً جزيلاً لك.

* * *

وصلت الحافلة المنتظَرة، فنزل ركاب الرحلة القادمة من حلب- الحسكة - القامشلي، واستعدّ الركاب المغادرون لصعود الحافلة.

حمل جنكيز وكريم حقائبهما إلى مستودع الحقائب في أسفل الحافلة، وصعدا إليها، وجلس الشاب جنكيز خلف كرسي السائق،

وبجانبه كريم وراء كرسي المعاون، وانطلقت الحافلة من الكراج.

وبعد خروج الحافلة من مدخل المدينة بقليل، لاحظ جنكيزُ السرعةَ الجنونية التي كان يقود بها السائق الحافلة، ورأى المعاونَ يقدّم العَرَق إلى السائق الأصلع البدين، فشعر جنكيز وكأنّ الحافلة تحلّق في الفضاء، وقد أطفأ السائق الأضواء الأمامية، وباتت الحافلة تسير على ضوء الكشّافات. وعندما وصلت الحافلة إلى التقاطع الدولي مع طريق الحسكة حصل ما لم يكن بالحسبان؛ إذ اصطدمت الحافلة بمركبة نقل طويلة كانت معطّلة وواقفة في منتصف الطريق العام، فالتقتا وجهاً لوجه، ولكن السائق البدين وبحركة سريعة خاطفة، حاول إبعاد الحافلة عن القاطرة من دون أن يكبح على الفرامل، فتمكّن من تجنيب نصف الحافلة طولياً تقريباً من الاصطدام بالقاطرة، فراحت القاطرة تقصّ الحافلة وتهشّمها من المنتصف من بدايتها إلى نهايتها مثل السكين الذي يُقطع به الجبن في حركة سهلة وسريعة، لقد قطعتها من أولها حتى آخرها بلحظات. وقد سيطر الهلع والذعر على المسافرين، وعمّ صوت البكاء والعويل الأجواء، وأصبح الشاب جنكيز فاغر الفم، ونظر ببلاهة ودهشة إلى تلك الجثث المتقطعة، والأجسام التي تملؤها الدماء؛ أطراف مبتورة على الأرض، وعشرات الجثث المشوهة كانت مرمية هنا وهناك، وقد امتزجت تلك الدماء التي كانت تسيل منها

مع بقايا زجاج النوافذ المطحون على الأرض.

وكان الشاب جنكيز لا يُدرِك ما يدور ما حوله، ولا يشعر بشيء، وكان ينظر ببصر زائغ، غير واعٍ لِما حصل، حتى اقتربت منه امرأة مسنّة غزا الشيب رأسها، وخطّ الزمان سطوراً كثيرة من التجاعيد على جبهتها العريضة، وصفعته صفعة قوية أعادته بها إلى الواقع، فتذكّر صديقه كريماً، وحين رآه نادى بأعلى صوته: كريم.. كريم. لكنّ كريماً لم يردّ عليه، فأخذ يدور بِحَيرة وذهول، ثمّ جلس القرفصاء، ووضع رأسه بين يديه، وأغمض عينيه، وارتعش جسمه من تلك القشعريرة التي سيطرت عليه حين أبصر جثة كريم الهامدة بلا روح أمامه، وتقدّم نحوها بخطوات متثاقلة، كأنه مقيّد القدمين، وتخشبت أطرافه من بشاعة ذلك المنظر المروع، فأراد أن يصرخ.. يصيح.. يولول كالنساء، ولكنْ أصابته نوبةُ خرس جامدة، فارتمى على جثّة صديقه الحميم، ووضع رأسه في حضنه، فانسابت من عينيه دموع سخيّة ملأت صفحة وجهه، وسقطت على وجه كريم الذي فارق الحياة، وامتزجت دموعه الحارة بالدماء المتجمدة التي سالت من جبهة كريم، وأغلق جفون عيني صديقه الزجاجيتين اللتين فارقهما رونق الحياة وبريقها، ثمّ رفع الشاب جنكيز، يده إلى السماء، وقال:

- حسبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون. رحمكم الله أجمعين، وجعل مثواكم الجنة.

وبعدها أطرق رأسه نحو الأسفل، وتمتم قائلاً:

- الموت يمسح كل شيء، ويأخذنا معه، ويترك للباقين من ورائهم الألم والأحزان.

وبعد دقائق وصلت إلى الموقع سيارات الإسعاف، والشرطة المدنية، وسارع رجالها إلى نقل الجثث والجرحى إلى المشافي.

أمّا الشاب جنكيز فقد تولّته العناية الإلهيّة؛ إذ خرج سالماً معافى، لم تُصبه إلا رضوض بسيطة في رأسه الذي اصطدم ببلور زجاج النافذة، وكأنه وُلد من جديد، فتابع طريقه إلى القامشلي مصطحباً معه الذكرى الوحيدة من صديقه الراحل كريم أحمد، وهي حقيبته التي فيها دفتر مذكراته.

الفصل الرابع
مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ

عندما عاد الشاب جنكيز إلى الحارة، بعد الانتهاء من دراسته في المعهد الزراعي، لاحظ تغيّرات مهمّة قد طرأت على شوارع الحيّ، فحين غادرها كانت مرصوفة بالحجر المكسّر، والآن هي مزفّتة، أمّا البيوت الطينية القذرة والحقيرة، فقد بقيت ممتدّة على طول الأراضي الزراعية، وظلت معاندة حضارة الغرب المتقدمة في كل المجالات، والتي تتمثل بناطحات السحاب والأبراج العملاقة، وهي تعانق عنان السماء بطولها الفارع.

ولاحظ تغييراً جوهرياً آخر، قد طرأ على الحارة، ألا وهو اختفاء عربات جرّ الأحصنة، وقد حلّت مكانها الدراجات النارية، وهي هدية التكنولوجيا الحديثة إلى الدول الفقيرة؛ إذ غدت وسائل رفاهية في النقل عند الفقراء من أهالي الحارة.

فلما وصل الشاب جنكيز إبراهيم إلى ساحة ملعب الأسد الترابي في مدخل الحارة، تمنّى بكل جوارحه أن تكون هذه الساحة مثل ساحة تايمز سكوير، أو ساحة كولومبوس، مكتشف القارة الأمريكية، ففي هاتين الساحتين الضخمتين كانت تقام احتفالات أعياد رأس السنة الميلادية والمناسبات القومية، وتشيّد فيهما منصّات لتقديم العروض الترفيهية والموسيقية، وتحاط هاتان الساحتان بالمباني العملاقة ذات المئة طابق، وتضمّ بين جنباتها سلسلة فنادق ومطاعم فخمة، وكذلك صالات القمار، إضافة إلى متاجر ألبسة جاهزة. فقال في نفسه:

- لماذا لا تكون عندنا تلك الساحات الموجودة في أمريكا نفسها؟

وبينما كان في الساحة الترابية نشطت رياح قوية، حملت معها ذرّات الغبار والأكياس الفارغة مع الأوراق البالية، واجتمعت متّحدة مع بعضها، وارتفعت بفعل قوة الرياح العاتية، وتحوّلت إلى دوّامة مخروطية في تلك اللحظة، فردّد الشاب المسكين تميمة أسطورية قديمة كان الأجداد يعتقدون أنها تُبعد الخطر عنهم، وتجنّبهم الأذى عند قولها، هي:

- «على البخيل، على البخيل»، وكرّرها عدة مرات، من أجل تجنُّب الوقوع في قلب الزوبعة الترابية. وانطلقت الزوبعة الترابية من ساحة الملعب إلى عمق الحارة، ثمّ تلتها، زوبعة أخرى تشكّلت من تراب الملعب، واتّجهت هذه المرة إلى أطراف الحارة .

ومن بعيد لاحَ لجنكيز طيف العجوز الفاسق، وهو قادم من شارع المقبرة إلى وسط الحارة، وكان يدفع عربته منادياً بصوت عالٍ: «حمالات صدر.. كلاسين.. تفريعات نسائية.. لا تفوّتوا الفرصة عليكم.. تعالوا يا أهل الحارة» .

تناهى إلى سمع الشابّ صوتُ العمّ أبي عمشة السابق، عندما كان يصيح على بضاعة اللوحات. فتسمّر في مكانه مرتقباً لقاءه به، وعلى مسافة خطوات غير بعيدة رفع يده ملوّحاً في شوق ولهفة إليه، قائلاً:

- هاي، يا عم.

توقّفت العربة اليدوية أمامه، وحيّاه العجوز المنحرف بنفس المودة واللوعة، ثمّ قال له:

- كيف الحال، أيها الشاب الطيّب؟

- بخير، والحمد لله.

أصبح وجه العجوز بلون البطيخ الأحمر من شدّة التعب والإرهاق الناتجَينِ عن دفع عربة اليد، وسأل جنكيزَ:

- أين كنت خلال هذه الفترة، إنني لم أرك في الحارة؟

- كنت مسافراً من أجل الدراسة في المعهد.

فقال العجوز الداعر:

- وما أخبار اللوحة الجميلة فاطمة المغربية؟

- لم أرها منذ عامين تقريباً.

كان الشاب جنكيز يعرف سلفاً، ما كان العجوز المنحرف ينوي أن يعرفه، فسأله:

- ما أخبار خالتي موجة البحر؟

انفرجت أسارير خدوده المتغضّنة، ولم تَخْفَ تلك العلامات عن أنظار الشاب جنكيز، وهو يرمق بدقّة وجه العجوز الداهية، فقال العم:

- ألا تعلم ما حصل، وأنت غائب عن الحارة؟

- وماذا جرى؟

- عجباً يا بني! ألم يخبرك أحدٌ بما جرى؟!

- لقد وصلت الحارة للتوّ، ولا علم لي بما جرى.

فقال له أبو عمشة منتشياً:

- لقد مات جارك عيسى زوج الخالة موجة البحر.

انزلقت الحقيبتان الظهريتان عن كتفي الشاب جنكيز على الأرض الترابية، وأسبل يديه، وقال بكلّ أسف على هذا الخبر المؤلم:

- يا ألله!! وماذا عن مصير هؤلاء الأطفال الصغار والخالة من بعده؟

ردّ العجوز:

- الزواج هو الحل المناسب لها، يا بني.

- ومن يرضى، أن يتزوج بأرملة معها نصف دَستة من الأطفال، ومعها هدية نصف دَستة من القطط الصغيرة؟

- أنا.

- أنتَ!!!

- نعم.

وأضاف العجوز:

- ولماذا أراك متعجّباً؟

- لأنك رجل متزوّج، وعجوز هرم.

- وهل يضير ذلك؟

- لا أعرف، أنت أدرى بذلك.

تنهّد الشاب جنكيز تنهيدة عميقة خرجت من أعماق نفسه السحيقة، وظلّ قلبه المفجوع يتألّم على زوج الخالة موجة البحر، وفكّر كيف ستصبح أوضاعهم بعد الرحيل المفاجئ للعم عيسى عنهم؟

فقال له العم أبو عمشة:

- لست طبيعياً، يا أيها الشاب!!

- أجل.

- ما الذي حصل معك يا بني؟ أخبرني فأنا مثل والدك.

- تعرّضت قبل ساعات من الآن لحادث سير مؤلم.

- أين جرى ذلك الحادث؟

- على الطريق الدَّولي.

- لعلّه لا يكون هناك ضحايا كثيرة.

أجاب الشاب جنكيز في ألم ظاهر:

- بل بالعشرات، ما بين قتلى وجرحى.

- سِترك يا رب، وتمتم كأنه يقرأ الفاتحة على أرواح ضحايا الحادث.

ودّع الشابُّ جنكيزُ العجوزَ المنحرف، على أمل اللقاء به في السبت القادم، وطمأنه بأنه سيدفع ثمن اللوحة التي احتفظ بها في غرفته، منذ عامين تقريباً عند رحيله عنها.

❋ ❋ ❋

شعر الشابّ جنكيز في تلك اللحظة، بدوار خفيف مرّ داخل جمجمة رأسه كسحابة صيف، وما كان يعرف أنَّ شريحة صغيرة من شرائح تخزين المعلومات في مستودع الذاكرة، قد تحرّكت من مكانها، ونتجت عن ذلك صفة خارقة اكتسبها ذلك الشابّ من أهل حارة البراكيل.

وصل جنكيز قريباً من محل السّمانة على ناصية الشارع، فسمع صوتاً خفيفاً يناديه، ويقول:

- كيف الحال يا جنكيز، هل أنت بخير؟

نظر حوله، فلم يرَ أحداً غيره في الشارع؛ إذ كان الشارع مُقفراً، إلا من بعض عصافير الدوري الكثيرة التي كانت تزور بعضها، وكأنها كانت تحتفل بطقس معيّن، أو عيد من أعياد أجدادها القدماء، منذ مليارات السنين، حتى قبل وجود البشر، أو قبل نزول سيّدنا آدم –عليه السلام– من السماء إلى الأرض، وفي خطيئة كبرى، ارتكبتها أمّنا حوّاء، فكان أبونا آدم ضحيّة تلك الخطيئة. وسمع مرّة أخرى همساً خفيفاً قادماً من جهة الصورة:

- لماذا لا تردّ عليّ، يا جنكيز؟

تأمّل باستغراب ما حوله، وتساءل: مَن يا ترى يتكلم معي، والمكان خالٍ من البشر؟ فقال في نفسه:

- أنا أهذي. ربّما أثّرت فيّ حادثة الحافلة، وزاد عليها خبر موت زوج الخالة ثقلاً أيضاً. ولكنني سمعت صوتاً يناديني من الأعلى في همس خفيف، ويقول لي: كيف الحال، يا جنكيز؟

نظر إلى الأعلى، وإلى لافتة الدعاية والإعلان، حيث ابتهجت له صورة الرجل في الدعاية، وقالت:

- أنا الذي أتحدّث إليك، يا بنيّ.

ردّ عليه الشابّ جنكيز، وهو خائف مرتبك:

- هل أنت من الجان؟

- لا.

- فمن أنت بحق الله، أخبرني؟

- أقول لك الحقيقة. فأنا صورة رجل في الدعاية، ألا ترى بعينيك، أيها الشاب؟

فقال جنكيز:

- أنا أحلمُ في وضح النهار.

أجاب الرجل الذي في الصورة:

- أنت لا تحلم، أنت تعيش الواقع.

- أنا أعرف جيداً أنك لا تريد أن تجرح شعوري، وتقول إني مجنون.

- أنت لست واهماً. أنت تعيش الحقيقة.

فقال الشاب :

- لقد أصبحتُ أهذي، وأنا أمشي في وضح النهار.

أجابت الصورة بتأكيد قاطع:

لقد تحرّكت شريحة من الذاكرة داخل عقلك، واندمجت مع أخرى، نتيجة لسببٍ ما أجهله، ولهذا أصبحت لديك قدرة خارقة على التحدّث مع الصور الصامتة الخرساء، وتشعر بما يشعر أصحابها، وهم يشعرون بما تشعر به يا بني.

فقال الشاب :

- لا أصدّقك، فأنا أشعر بدوار خفيف أسفل رأسي وأحسّ أنني أهلوس.

- أعرف أنها حالة غريبة، وعليك أن تندمج وتتأقلم مع هذا الوضع الخطير، يا جنكيز.

فرّ الشاب جنكيز إبراهيم، وولى هارباً من أمام صورة الرجل في لوحة الدعاية والإعلان التي كانت معلّقة على جدار محل البقّالة على ناصية الشارع في مدخل الحارة، وقد التفت إلى الوراء ورأى بعيداً شبح العم أبي عمشة وخياله المتذبذب، يختفي ويزول مثل سراب صيفي أمام ناظريه، وتذكّر موت الخال عيسى زوج الخالة موجة البحر، وقال في نفسه: مصائب قوم عند قوم فوائد، وحمل حقيبتَي الظهر، وتوجه إلى منزله، بعد غياب دام عامين، قضاهما في مدينة الحسكة.

الفصل الخامس
الحديث مع اللوحة

كانت غرفة الشاب جنكيز تطلُّ على رصيف الشارع مباشرة. أدخل المفتاح في قفل الباب، ودفعه ببطء شديد نحو الداخل، فتسلّلت حزمة ضوئية خفيفة من شقّ الباب وبدّدت شيئاً من ظلمة الغرفة. وقف على عتبة الباب الداخلية، وراح يتأمّل بخشوع غرفته التي يعمّها السكون الهادئ، والتي عاد إليها بعد غياب دام حوالي عامين، بغرض الدراسة والفرار من تجربة عشق فاشل. ثمّ صفق الباب من ورائه بكلّ هدوء.

انزلقت الحقائب الظهريّة بصمت جنائزيّ من أعلى كتفيه إلى الأرض، واستندتا إلى حافة السرير، ثم جلس على الكرسي اليتيم في تلك الغرفة المقرفة، وهو ينظر بشوق ولهفة إلى الملاءة الحمراء المخملية التي كانت تطوف حول اللوحة القائمة على المنصب القائم في زاوية

الغرفة بخشوع وجلال مهيب، وفي غمرة الأجواء المفعمة بالعواطف والأحاسيس الطافحة بالحبّ، تخيل الشاب جنكيز نفسه مصارعاً إسبانياً بارعاً يحوم في حلبة مصارعة الثيران، وتلك اللوحة ثوراً هائجاً، فإما أن يتغلّب على ذلك الثور المغطّى بالغطاء الأحمر، أو يغرس ذلك الثور الهائج قرونه الحادة في بطنه. فاستلّ من درج الطاولة الصغيرة ملعقة سكب طويلة من (الستانلِس)، واستعدّ لخوض معركته الشرسة مع الثور الساكن المغطّى بالأحمر، وبدّل ثيابه، وظلّ من الأعلى عارياً حتى الخصر، كمصارع روماني يصمّم على الصراع حتى الرمق الأخير.

وقف في مواجهة المرآة الجدارية، وتأمّل نفسه بنظرات ذلك المصارع الشرس، ثم استدار نحو الملاءة الحمراء المنتصبة كثور هائج في زاوية الغرفة المظلمة، وأمسك بجذع ملعقة السكب الطويلة، وراح يلوح بها في الهواء بحركات جنونية تُعرب عن خفّته ورشاقته في القتال، ثم توقّف أمام المنصب لتنفيذ ضربة خاطفة وسريعة على الملاءة الحمراء التي كانت تغطّي كامل جسد الثور المتخيَّل، وفجأة غرس بكل ثقله تلك القطعة من (الستانلِس) في رقبة الثور الساكن، لكنّ الثور المتخيَّل ظلّ ساكناً تحت الملاءة، فقرّر الشاب الواهم أن ينزع بكل ثقة قطعة القماش الأحمر عن المنصب القائم في تلك الزاوية من الغرفة، وقتئذ كشفت له الستارة عن لوحة جميلة لفتاة حسناء فائقة الجمال، فقالت

فتاةُ اللوحة التي تجسّد صورة فاطمة المغربية:

«واااو..أمان يا ربّي أمان..

شابّ جميل، وأنيق كالمرجان..

أمان، يا رب، وفي يده الرمح والصولجان..

أمان، يا رب فارس الفرسان..

وفي عينيه بريق الحب والحنان..

من أنت أيها الفارس الشجاع؟

ومن أين أتيت»؟

وقف الشاب جنكيز أمامها مذهولاً، وتمنّى لو أنّ زوبعة التراب المخروطية التي تشكّلت في الساحة قد ابتلعته، لأنه يرى نفسه عاجزاً، لا يقوى على مغازلة الفتيات، أو حتى النظر في وجوههنّ، وكان حين يتجرأ أحياناً على الكلام يتلعثم ويُتَأْتِئ حانياً رأسه نحو الأسفل في خجل وحياء. فقالت اللوحة:

- ما بك يا أخرس؟ لماذا لا تردّ عليّ؟ هل كنت تعيش مع الحيوانات؟!! حتى الحيوانات يغازلُ بعضُها بعضًا؟ هل أنت حجر أصمّ!!

فجلس الشاب العائد توّاً من السفر على الكرسي، وأسند ظهره

إلى الخلف مواجهاً اللوحة الجميلة، وقال:

- أنا لا أخاف من الصور.

- لماذا لا ترد عليّ إذن، أيها الشاب؟

- لقد أُصبتُ بالخرس، أمام هذا الجمال الإلهي الرائع.

- وصفك جميل، أيها الشاب الطيّب.

- أنتِ أجمل ما رأته عيناي حتى الآن.

- أنت تبالغ كثيراً.

- لا، ما أقوله ليس إلا حقيقة.

وبعدها وقف الشاب جنكيز المفتون باللوحة الجميلة، واقترب منها، فتلمس بأصابعه وجه الحسناء الصامتة، وتلفّظ بالآية الكريمة التي تقول:

- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- ماذا تقصد أيها الشاب جنكيز؟

- أقصد أن الله عرف قبل أن تأتي إلى هذه الحياة أنكِ حسناء باهرة الجمال.

- نعم، أيها الشاب.

– ولكنكِ على الرغم من جمالكِ، فأنتِ شقيّة وتعيسة، لأنكِ تزوّجت من ذلك الضابط الإنكليزي من دون رغبة فيه.

– هذا صحيح... هي إرادة الله عز وجل، ولا مفرّ منها.

– إذن أنتِ تؤمنين بالقدر؟!

– نعم.

– ها أنتِ جميلة، وشقية بنفس الوقت.

– أجل أيها الشابّ الوسيم.

– أنا قبيح مقارنةً بجمالكِ، ولكنني أسعد منكِ.

– من الأفضل أن نغيّر الموضوع . أراك مؤرّقاً ومهموماً، يا صديقي الشاب!! هل أنت عاشق؟

– أنا عاشق فاشل وجبان.

– هل تعاني من شيء معين؟

– لقد مات لي صديق عزيز على قلبي في حادث سير ليلة أمس، وكنت معه في الرحلة نفسها.

– الموت حقّ على البشر.

– ولكنّ الموت المبكّر طعمه مرّ.

وتابع الشابُّ:

– كان صديقاً حميماً، وكنت أحبه كثيراً.

– هذه هي حال الدنيا، أيها الشاب المسكين.

– نعم، أيتها الحسناء الجميلة.

فقالت اللوحة المعلقة على المنصب الخشبي:

– أنت مُرْهق، وتحتاج إلى الراحة والنوم.

– أجل.

– تصبح على خير.

– وأنتِ من أهل الخير.

وبعد حوار وجدال طويل مع اللوحة، غطّى الشاب إبراهيم اللوحة بالملاءة الحمراء، وتوجّه إلى سريره العفن، بعد أن أنهكته تلك الأحداث الأليمة التي حدثت معه في هذا الصباح الباكر، ورمى بجسده المتعب عليه، وغطّ في سبات عميق.

الفصل السادس

العريس وراء قضبان السجن

ظلّ الشاب جنكيز مستغرقاً في نومه حتى ساعة متأخرة من اليوم التالي، واستيقظ فجأة، إثر صوت دوي طلقات مسدس ناريّ، تلته أصوات زغاريد النساء التي ملأت الحارة.

بقي جنكيز مضطجعاً على سريره إلى أن استعاد وعيه، فنهض وتوجّه بكسل شديد إلى المغسلة البلاستيكيّة، فغسل وجهه بالماء البارد، علّه يستعيد حيويته ونشاطه، ثمّ رنا إلى المرآة الصّدِئة، المنتصبة فوق المغسلة، ووضع قليلاً من معجون الأسنان على لثته الملتهبة، وأخذ يدلكها بإصبعه، بدلاً من استعمال فرشاة الأسنان، ثم غسل فمه، وعاد بمزاج شبه رائق، إلى غرفته العَفِنة، وكانت الأصوات قد هدأت قليلاً في الشارع.

وفي المقابل علت أصوات أرجل دقيقة، مصدرها سقف الغرفة

الطينيّة المدعّم بالعواميد الخشبية؛ إنها أصوات أرجل فئران كانت قد نشطت باحثةً عن كسرات من الخبز اليابس.

تقدم الشابّ جنكيز باتجاه النافذة المغلقة، وأزاح الستارة عن جزء بسيط منها، وألقى نظرة على الشارع، فلفت انتباهه وجود حركة غير اعتيادية كانت تجري أمام بيت جارته موجة البحر، فانتابه فضول لمعرفة ما يجري، فقرّر النزول إلى الشارع لاستكشاف الحدث، وارتدى ملابسه، وغادر الغرفة تاركاً اللوحة في نوم هانئ.

* * *

نزل الشابّ إلى الشارع قاصداً مكان تجمّع أبناء الحارة أمام منزل الخالة موجة البحر، ومع كل خطوة يخطوها إلى الأمام كان يزداد صوت الغناء والزغاريد ارتفاعاً، فازداد تشوّقاً لمعرفة سبب الاحتفال.

وفجأة مرّت بجانبه سيّارة أَمنيّة تلمع أضواءُها الزرقاء والحمراء، متّجهة صوب ذلك الحشد من الناس. فزاد من سرعة خطواته، كي لا يفوّت على نفسه مشاهدة الأحداث أولاً بأول.

ومع وصول السيّارة الأمنية إلى مكان الحفل انقلبت أجواء البهجة والاحتفال الصاخبة إلى هدوء وسكينة. فُتحت أبواب السيارة، ونزل منها عدّة عناصر مسلّحين، ووقفوا باستعداد على باب بيت الخالة

موجة البحر، ثمّ نزل من السيارة رجل في الخمسين من عمره نحيل الجسم، ذو شَعر رمادي، وشوارب كثّة، وصاح بملء حنجرته:

- أين العريس؟

فتقدّمت من بين جموع المحتفلين امرأةٌ قصيرة بدينة، كانت معروفة في الحارة بفضولها ولسانها الحادّ السامّ كالأفعى، وقالت له:

- ماذا تريد من العريس، يا سيدي؟

- هذا ليس من شأنكِ، يا امرأة.

وقتئذٍ وصل الشاب جنكيز مكان الحفل، وانخرط بين المجتمعين، تتملّكه رغبة جامحة ممزوجة بالفضول لمعرفة الأخبار، ففوجِئ بالعمّ أبي عمشة، وهو جالس إلى جانب الخالة الأرملة في حلّة أنيقة، وحولهما نصف دَستة من الأطفال، فأدرك الشاب جنكيز أنّ العريس المطلوب الذي يَسأل عنه ضابطُ الأمن «أبو الشوارب» هو صاحب العربة اليدوية الذي كان يزور الحارة كلّ سبت.

أمّا العجوز الستّيني فقد كان في غاية الراحة والانسجام، تغمره البهجة والفرح، ولم يكن آبهاً بما كان يحصل في الخارج.

استمرّت المرأة ذات اللسان السام في محاورة الضابط النحيل، وهي تشد قميصه من دُبُرِه، قائلة:

- هذه حفلة خطوبة، نحتفل بها، يا سيدي.

سحب الضابط المكلّف باعتقال العريس نفَساً عميقاً، وقال:

- أعرف ذلك أكثر منكِ، يا امرأة.

فردّت عليه المرأة الفضولية بخبث:

- ليس لنا علاقات مع الجماعات المسلّحة كي تقتحم حارتنا بهؤلاء العناصر المدجّجين بالسلاح.

فقال لها الضابط النحيف:

- اخرسي، يا طويلة اللسان.

فقالت لسان الأفعى السام بذهول:

- ماذا تريد منّا، يا سيدي الضابط؟

- معي مذكّرة اعتقال.

- أويها!!! بحقّ مَن يا سيدي؟

- بحقّ العريس.

فصاحت المرأة الفضولية بصوت عالٍ:

- أويها!!! وماذا فعلَ العريس كي تعتقلوه؟ هل هو زعيم تنظيم القاعدة ونحن لا نعلم بذلك؟

- لا.

- هل هو مجرم خطير، وفارّ من وجه العدالـة، ولـيس لنـا عِلـم بذلك، يا سيدي؟

- أيضاً لا.

فأشارت الفضولية إلى مكان العريس، وقالت:

- العريس هو ذاك العجوز أبو عمشة المعروف في الحارة بصاحب عربة الدفع اليدويّة.

وضع الضابط «أبو الشوارب» يده على المسدس المعلّق على خصره، وقال:

- هناك شكوى عليه من زوجته الأولى.

فسألته المرأة الثرثارة:

- هل ضرب زوجته حتى اشتكت عليه، وأحضرت هـذه القـوة كلها؟

فأجابها الضابط بحدّة:

- ألا تعلمون أن الزوجة الثانية أصبحت ممنوعة في حارة البراكيل؟

- وما سبب المنع يا سيّدي؟

- كفّي عن ثرثرتك يا امرأة، أنا رجل مكلّف بتطبيق القانون.

- عن أيّ قانون تتحدّث يا سيّدي؟

- القانون الجديد الذي يمنع الزواج بامرأة ثانية.

- ومتى صدر هذا القانون، يا سيدي؟

- منذ عدّة أيام.

- وهل بدأتم بتطبيقه؟

- أجل، من هذه اللحظة.

- وهل هو قانون عامّ لكل الحارات، أم خاصّ بحارتنا فقط؟

- طبعاً هناك بعض الحارات مستثناة من تطبيقه.

ثمّ التفت ضابط الأمن إلى الجماهير المحتشدة في الشارع، وخاطبهم قائلاً:

- ممنوع منعاً باتّاً أن يتزوّج رجل في هذه الحارة وزوجته على قيد الحياة.

فخاطب الضابطَ «أبا الشوارب» رجلٌ أعورُ، فَقَدَ إحدى عينيه في أثناء نقل قضبان الحديد بعربة تجرّها الأحصنة إلى المشاريع الإنشائية، قائلاً:

- هل أنت متأكّد مما تقوله بخصوص منع الزوجة الثانية يا سيدي؟

- وهل تعتقدُ أني أنسب إلى القانون أمراً باطلاً؟

- لا يا سيدي.

فصاح من بعيد رجلٌ مفوّه في العقد الأربعين من عمره يشبه الثعلب في هيئته ومكره، وكان أبناء الحيّ ينادونه: «يا أيها القاضي المبجّل»، لِسَعة ثقافته ومعرفته بالقوانين:

- يا سيدي، أهل الحارة كلهم مسلمون.

- أعرف ذلك.

- أنت تطبّق قانوناً أوربيّاً علينا.

- أنا أنفّذ القانون فقط.

ولكنّ الجدال الطويل بين الضابط ولسان الأفعى السام، وذي العين الواحدة، والقاضي المثقّف، لم يكن ذا فائدة في حلّ موضوع الزوجة الثانية؛ إذْ أمر الضابطُ «أبو الشوارب» أحدَ جنوده بإحضار العريس بالقوّة، وأخرج من جيبه القرارَ الممهور بالأختام الرسمية القاضيَ بمنع الزواج من امرأة ثانية، وراح يتلو على مسامع أبناء الحارة عقوبة من يخالفه:

- يُعاقب كلُّ مَن تُسوِّل له نفسه، أو يفكّر بأخذ زوجة ثانية على زوجته الأولى بالحبس لمدّة ثلاثة أشهر، وتطلق الزوجة الثانية منه فوراً.

فقال ذو العين الواحدة:

- يحقّ للرجل بحسب دفتر العائلة أن يتزوّج أربعاً.

- إنه قديم، ارمهِ في القمامة.

فسأله المثقّفُ الذي يشبه في شكله الثعلب:

- وماذا نستعمل بدلاً من الدفتر القديم يا سيّدي؟

أجابه الضابط النحيف:

- الدفتر الجديد قيدُ الطبع.

همس ذو العين الواحدة، في أذن المفوّه الذي يشبه الثعلب:

- يا فرحة النساء، لقد انتصرن علينا.

ردّ المثقف على ذي العين الواحدة:

- اخرس، فنحن في خطر.

كان الشابّ جنكيز يسمع كل تفاصيل الحوار الدائر بينهم، ولم يكن مذهولاً مما كان يحدث بشأن ذلك، لأنه عندما عاد إلى الحارة، كانت قد طرأت عدة تغييرات جوهرية عليه، كتزفيت الشوارع بالأسفلت الأسود، وتزايد أعداد الدرّاجات النارية التي تزعج الناس، وتتسبّب في حوادث مرورية كثيرة، لأن غالبية مَن يقودها هم في سن المراهقة.

أمرَ الضابطُ النحيف بوضع الأصفاد في يد العريس، وعندما مـرّ العريس بين جموع المدعوّين مقيّد اليدين، انقلب الاحتفـال بـالعرس إلى ابتهاج من نـوع آخـر؛ إذ تعالـت أصـوات النسـاء وزغاريـدهن، ابتهاجاً بذلك القرار الذي أنصفهنّ ووقف في صفّهن، فكـان خطـوة مهمّة لصالح المرأة، تُسجَّل في دفتر حرّية المـرأة، لـذا صـاحت المـرأة الفضولية بأعلى صوتها:

- يعيش القانون الأوربي الحديث، يعيش الحق.

في حين ظل الرِّجال مُنحني الرؤوس مكسوري النفوس، إثر هذه الهزيمة الساحقة، وأمام القرار الأخير لصالح النسـاء بشـأن الزوجـة الثانية، وصار العريس أبو عمشة وراء قضبان السجن، يواجـه تهمـة الخيانة الزوجية، لأنه فكّر بالزواج على زوجته الأولى.

الفصل السابع
الاعتراف الأول

توجّه الشاب جنكيز إلى حقيبة صديقه كريم التي تفوح منها رائحته المتلبّسة بها، وهي الذكرى الوحيدة المتبقية له منه، وأخرج منها دفتر مذكّراته، وبدأ يقرأ وهو جالس على الكرسي أمام اللوحة، منتحلاً شخصية كريم، موهماً إيّاها بأنّه هو صاحب تلك المغامرات العاطفية الملتهبة، فشرع يسرد عليها:

بعد مُضي أيام قلائل على حفلة تعارف الأصدقاء في المعهد، كان هدفي الأساسيُّ اصطيادَ الفتاة تمر حنّة، حيث وقع اختياري عليها منذ الوهلة الأولى في المعهد، لأنها كانت الأكثر شبقية وتجاوباً حينها، وحاولتُ أن أصل إلى أبواب قلبها بأيّ ثمن، وهنا كان عليّ أن أجد وسيلة أو طريقة فعّالة للقيام بعملية إغراء الفتاة، وتركها محطمة إلى أشلاء، من بعد أن أُشبع غريزتي النهمة وشهوتي الجائعة، على حساب

سعادتها، وليس بنيّة أخرى غير ذلك. فهذا ما كنت أفكّر فيه، منذ أن رأيتها، وتعرفت إليها في الحفل. وقد حاولت محاكاة تلك الصور العالقة بذاكرتي من غابر الزمان، وذلك عندما كنت صغيراً في القرية، كنت أشاهد جدّتي، وهي تُطعم الدجاجة وصيصانها الصغار، وذات يوم كان طائر مفترس يحوم محلّقاً حول تلك الصيصان الصغيرة، وعندما شعرتِ الصيصان باقتراب الطائر منها، اجتمعت بسرعة حول الدجاجة الأم المرتبكة، والتصقت بها، وكادت تلك القلوب الحيوانية الصغيرة تقفز من صدورها، من شدة الخوف والفزع، لكنّ ذلك الطائر الجائع المفترس كان يدور ويدور لساعات طويلة من حولها، منتظراً الفرصة السانحة، لينقضّ عليها، فيقول الشاب كريم، لقد تعلّمتُ من الطائر الجارح أن أحوم حول فريستي تمر حنّة، وأنتظر الفرصة المواتية للقنص، وبنفس الأسلوب والطريقة.

فقالت صورة فاطمة المغربية في اللوحة فجأة:

- توقَّف يا قاسي القلب.. توقّف.

أجاب جنكيز الذي كان يمثل دور الشاب كريم في المغامرات العاطفية:

- ما الذي يجري، يا لوحتي الجميلة؟

- وما الذي لا يجري؟

- لا أفهم شيئاً!!

- أنتَ شابّ ساديّ.

- لا، لست سادياً أبداً.

- ترتكب كل هذه الفظاعات بحقّ الفتاة المسكينة، وتُنكر أنّك ساديّ!!!

فقال الشاب في نفسه:

- لو عرفتِ حقيقتي!! فأنا مازوشيّ أباً عن جدّ.

وعاد الشاب جنكيز إلى وعيه، وأدرك الخطأ الفادح الذي وقع فيه، لأنه انتحل شخصية كريم، وتقمّصها في تلك المذكرات، فلم يكن من حلٍّ أمامه سوى أن يدافع عن نفسه، ليُقنع لوحته الجميلة ببراءته، فقال لها:

- هي التي كانت تقوم بحركات إغرائية.

- تريد أن تقول: إنّ الغاية تبرر الوسيلة؟!

- بالضبط.

واصلَ الشاب جنكيز قراءة مذكّرات صديقه الغرامية قائلاً:

وما أسهل أن تغرِّر بالفتيات المراهقات، فهن في البداية يُبدينَ عناداً وتكبّراً، ولكن مع المحاولات المتكرّرة، تتلاشى كل تلك

الحواجز والصعوبات، وتبدأ الفتاة بالتجاوب والنزول عند رغبة الشاب الجامحة، وتُبدي أقصى ما لديها في تبادل الحبّ، ويؤكد الشابّ كريم أحمد فيقول: يجب أن تتسلّح بالجرأة والشجاعة في الاقتراب من الجنس اللطيف، وبعد ذلك يأتي دور الغزل، ووصف مفاتن الحبيبة الجسدية. كأن تقول لها: إنّكِ أجملُ ما رأته عيناي حتى الآن على الإطلاق، فأنتِ ذات قوام رشيق وجميل، وإنّكِ أحلى ملكة جمال في العالم، ولم أرَ واحدة أخرى غيركِ بهذه الرقّة والحلاوة، لأن تأثير الكلمات العاطفية في المشاعر والأحاسيس الإنسانية أقوى من تأثير الطلقات النارية في الجسد. هذه هي الخطوة الأولى في التقرّب من الفتيات.

ومن ثمّ تبدأ بالخطوة الثانية، وتقول لها: أنا شاب أختلف عن سائر الشباب، وأنتِ معبودتي، أنتِ ملكتي، أنتِ عمري، أريد إقامة علاقة حبّ عذريّ طاهر يا حياتي، كحبّ جميل وبثينة، وأكره أولئك الشباب المنبوذين أخلاقياً، الذين يقومون باستغلال علاقة الحب والغرام، من أجل شهواتهم الدنيئة، وبمجرد الحصول على رغباتهم يتركون كل شيء وراءهم ويرحلون.

ويضيف كريم أحمد أيضاً: إنني مستعد أن أحارب العالم أجمع من أجل الفوز بمفتاح غرفة قلبكِ، يا حبيبتي الغالية، وأتضوّع بعبق أريج زهور الفردوس التي تزهر على صفحة قلبكِ الطيّب.

فصاحت اللوحة:

- قف هنا أيها الشاب، ما عدت أحتمل.

- ها قد عدتِ إلى الدلال والغنج، يا لوحتي الأنيقة.

- أنت شابٌ فظيع، تريد الوصول إلى الفتاة بأية وسيلة، ومن أجل إشباع رغبتك الدنيئة فقط... أنت وحش مفترس ومدمّرُ القلوب البشرية.

- أنا؟!!

- نعم، أنت. ومَن غيرك يقوم بهذه الأعمال القذرة، مع الفتيات البريئات؟

أصبح موقف الشاب حرجاً، وبات محاصراً، فأينما يشيح بوجهه في الغرفة، تحاصره اللوحة بالأسئلة المحرجة، لأنه كشف لها عن قيامه بتلك المغامرات الدنيئة القائمة على الغريزة الحيوانية.

فقال الشاب مدافعاً عن تصرّفات صديقه كريم:

- هي التي بدأت تتحرش بي أولاً.

- تقصد الفتاة تمر حنة؟

- هي بعينها.

وأخذ القلق والتوتر يدبّان في أوصال الشاب جنكيز الذي أصابه

الحرج من استجواب اللوحة له، وبدأت حبّات عرق لؤلؤيـة تنضـح من جبينه، وبين فينة وفينة، يمسحها بظهر يده. فقال في نفسه:

- ماذا فعلتُ بنفسي، يا إلهي؟

وفي نوبة سكون هادئة، هاجمت اللوحة الشابّ قائلة:

- أنتَ مصّاص دماء.

- ترينني مثل دراكولا؟

- نعم، أنت تعرف نفسك جيداً .

- يا إلهي أصبحتُ مصّاص الدماء، وأنا لم أفعل شيئاً.

- بماذا تُتَمْتِمُ يا دراكولا؟

- نعم، أنا مصاص دماء.

ابتسمت اللوحة:

- وأخيراً، اعترفت، أيها الشاب الساديّ؟!

- من الأفضل أن أعترف بالذنب، لأن الاعتراف بالذنب فضيلة.

- أحسنتَ.

راح الشاب جنكيز يزرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويـداه متشـابكتان فوق رأسه، ويقول في نفسه:

- يا ويلي، يا ويلاه.

فقالت اللوحة:

- ابدأ بالسرد أيّها الشابّ المتيّم.

- يبدو أنّكِ أصبحت تستمتعين بمغامراتي العاطفية، يا لوحتي الحسناء.

- إنني أحسّها غريبة بعض الشيء، وفيها أحداث مؤلمة.

- أنا جاهز، يا مستمعتي.

وبدأ الشابّ يقرأ في دفتر صديقه الراحل:

بعد بضع لقاءات بيني وبين الفتاة تمر حنة صديقة المعهد، انجرّت بسرعة معي إلى علاقة بغاء غير طاهرة، وكنا نتواعد جهراً أمام الطلاب في كافتيريا المعهد، وفي جوٍّ حميمي ساخن، وأصبحنا فيما بعد عشاق بغاءٍ حقيقيّين، وبعدها طلبت مني صديقتي، أن نلتقي خفية عن الأعين، ونضرب مواعيد غرامية وسرية، نعقدها في جلسات ساخنة، وراء أبواب مغلقة، وكانت تريد أن أحدّثها باستمرار، عن طُرق الممارسة الجنسية، ومنها طريقة فم السمكة، وطريقة المروحة، والمقص، وكذلك طريقة خرطوم الفيل، عندما يشفط الماء ويبخّه على جسمه، إضافة إلى طريقة القفل الأتوماتيكي الخطر والمؤلم على الجنس اللطيف، وفي هذه الطريقة بالذات تبدأ الفتاة بالترجّي والبكاء، من شدة اللذة والألم. فكانت فتاتي الشبقة تستلذّ، وتستمتع في نشوة كبرى في تلك

اللقاءات الساخنة.

قاطعته اللوحة فجأةً قائلة:

- توقّف توقف.

- ماذا دهاكِ؟

- لقد تعدّيتَ كل حدود البغاء، أيها الشاب الفاسق.

- كلا، لم أتجاوز الحدود أبداً.

- تشرح لها الطرق الملتوية، وهي فتاةٌ بتول بَعدُ!!

- هي التي كانت تلحُّ عليّ أن أشرح لها تلك الطرق الجنسية الشاذة.

وتابع الشاب حديثه:

- عندما كنت أقوم بشرح كل طريقة، كانت الفتاة تصبح في غاية النشوة.

أجابت صورة اللوحة:

- تطرّقتَ، يا أيها الشاب العاشق إلى أمور غريبة عن الفتاة.

- وما ذنبي أنا في هذا، يا لوحتي الملائكية؟

- ذنبك أنك كنت تحاول أن تجعلها ترتبط بك عاطفياً.

- بالتأكيد أنا لا أنكر، فهذه نهاية كل علاقة حب بين شاب وشابة، في الارتباط مع بعضهما.

سألت اللوحة الشاب جنكيز:

- هل من الممكن شرح طريقة القفل الأتوماتيكي؟

فقال الشاب جنكيز إبراهيم في نفسه:

- أنتَ خطير، يا كريم.

وتابع الشاب:

- الأجواء غير مناسبة الآن.

فقالت اللوحة بإصرار:

- وهل ستشرحها لي في وقت لاحق؟

- ولِمْ لا؟

كان الشاب يكذب على اللوحة، لأنه كان يدقّق في الحواشي والملاحظات، فلم يجد شيئاً يتعلّق بتأويل تلك الطريقة، حيث عدّ الشابّ طريقة القفل الأتوماتيكي أحدث طريقة لممارسة الجنس، فقال لها:

- بالتأكيد يا لوحتي.

ثم نظر الشاب عبر زجاج نافذة الغرفة إلى الشارع، وألصق أذنه بزجاج النافذة، واستمع إلى أصوات الأطفال الصغار القادمة من بيت الخالة موجة البحر، وكانت الأصوات تنقطع فجأة، فيُسمع

مواء صغار القطط، ترتفع بعدها، وعاد الشاب إلى اللوحة، وجلس على كرسي الاعتراف، وتابع قراءة مذكرات صديق المعهد:

لقد تخطّينا مرحلة اللقاءات العلنية، وبدأنا مرحلة اللقاءات السرية، وراء تلك الأبواب المغلقة، فأصبحت صديقتي تمر حنة، مثل الزوجة المطيعة تسلّمني جسدها بكل طواعية، ولا تتردّد ثانية واحدة عندما أطلب منها ذلك، وكنت أتساءل في بعض الأحيان في نفسي: ماذا سيكون مصيرها إذا تركتها؟ لا أُخفي أبداً أنني كنت، أتوجّس من أن تقوم الفتاة بالانتحار، أو تصاب بمرض نفسي يصعب أن تُشفى منه، إلا بعد مرور سنوات، وبالفعل لم تختَرِ الفتاة الشبقة الخيار الأول، وهو الانتحار، بل أُصيبت بالاكتئاب المزمن، وذلك جرّاء القرار الذي اتخذته بحقها، بقطع علاقة البغاء معها، هذا ما حصل معي بشأن صديقتي تمر حنة.

فقالت اللوحة:

- أنت مريض.

- أنا مريض؟

- نعم، أنت مريض.. وغد.. حقير.. سافل.

قال الشاب غاضباً من لوحته الحسناء:

- أنتِ تنعتينني بهذه الصفات؟

- نعم، لأنك لا تمتلك ذَرّة واحدة من المشاعر الإنسانية، أنت حيوان ناطق، لا تفكر سوى بالغريزة الجنسية.

- هي التي كانت تشجعني، وتدفعني إلى هذا الطريق الخطأ.

- ألا تملك عقلاً تفكّر به، يا أيها الشاب الأحمق؟

- في هذه الأمور تتعطّل قشرة الدماغ، يا لوحتي الغالية.

- هداك الله وأصلحك.

- شكراً جزيلاً على هذه الدعوات.

وتقدّم الشاب جنكيز إبراهيم نحو اللوحة، وغطّاها بالملاءة الحمراء المخملية، وانتهى من الاعتراف الأول أمام لوحته الحسناء، وتمدّد على سريره، ونام نوماً عميقاً.

الفصل الثامن
الاعتراف الثاني

استيقظ الشاب جنكيز من النوم في صباح اليوم التالي، وذهب في زيارة قصيرة إلى منزل الخالة موجة البحر، يتفقّد أحوالها، وما آلت إليه الأوضاع من بعد فشل حفلة الخطبة، وذهاب العريس العم أبي عمشة إلى السجن. طرق الشاب الباب، ورأى الخالة أمامه، وهي تفتح الباب، بوجه كئيب وحزين فسألها:

- هل أنتِ بخير، يا خالتي؟

- من أين يأتي الخير هذه الأيام، يا بني؟

أطرق رأسه نحو الأسفل، وقال في أسف:

- ما باليد حيلة، يا خالتي!

- أعرف ذلك، يا بني.

وفي تلك الأثناء حدج ببصره من فوق كتف الخالـة موجـة البحـر، إلى زاوية فناء الدار الترابي، ورأى الأطفالَ وصغار القطط يتشـاركون في وليمة جماعية، ويأكلون من صحن واحد، بنهمٍ وشراهة، فقال:

- أنا دائماً في الخدمة، يا خالتي، ومن واجب الجار أن يساعد جاره في السرّاء والضرّاء.

هزّت الخالة رأسها، وقالت:

- أكثر الله خيرك، يا ولدي.

❊ ❊ ❊

قفل الشاب عائداً إلى غرفته الطينية الحقيرة بقلب مكسور، وتقدّم باتجاه حامل اللوحة، وأزاح الملاءة المخملية الحمراء عنها، ثمّ جلس على كرسي الاعتراف، وكان دفتر مذكّرات صديقه كريم العاطفية بين يديه، فقال للوحة:

- صباح الخير، يا لوحتي الجميلة.

- صباح الفلّ، والياسمين. أراك حزيناً، أيها الشاب!

- أجل.

- ولماذا؟

- من أجل جارتي موجة البحر، وأطفالها الصغار.

وأخذ الشاب جنكيز يبكي بكاءً حاراً على حالة الفقر، وعلى الواقع الأليم الذي كانت تعيشه الخالة من بعد موت الخال عيسى، وفشل زواج الخالة من العجوز أبي عمشة صاحب العربة، فقالت له اللوحة:

- البكاء لا ينفع في هذه الأمور.

- ولكنّ كلَّ ما أمتلكه في هذه الدنيا هي هذه الدموع السخيّة، يا لوحتي العطوفة.

- قم بتقديم يد العون لهم.

- من أين؟

- لديّ اقتراح مناسب لكَ، يُرضي الطرفين أنا وأنت، أيها الشابّ.

- وماذا تقترحين، يا لوحتي؟

- أن تبيعني في المزاد العلني.

- ولكن!!

- ولكن ماذا؟ ألا تريد مساعدة الفقراء الجائعين؟

فكّر الشاب وقال:

- من يشتري؟

وأضاف:

- هذا ما فكّرت فيه منذ صباح هذا اليوم، عند زيارة بيت الخالة موجة البحر.

فقالت اللوحة:

– وأنا موافقة، ولكن بشرط.

– ما شرطك؟

– أن تبيعني بعد أن تكمل قراءة تلك المغامرات العاطفية.

– موافق.

– هيّا ابدأ إذن يا صديقي الشاب، وأكمل اعترافاتك.

فتح دفتر المذكرات وراح يقرأ عليها الاعتراف الثاني لصديقه كريم:

ليست كل الفتيات على درجة واحدة من السلوك والتفكير، فقد كنت سابقاً أعتقد أن كل الفتيات متشابهات، وأنّهن يُشبهنَ صديقتي تمر حنة، وغيرها من الفتيات اللواتي تعاملت معهن من قبلها. فعندما أردتُ إقامة علاقة حبّ على غرار تلك العلاقات السابقة، مع صديقتي نسرين الدلّوعة، حقيقة كنت مصدوماً ومصعوقاً، لأنني حاولت مع نسرين الحصولَ على الملذّات الجسديّة، كما فعلت في السابق مع غيرها، ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً أن تسلّمني جسدها، وسدّت كل طرق البغاء في وجهي آنذاك، حتّى أصبحت كالمجنون الهائم على وجهه، لا أعرف ماذا أفعل. لقد كانت حياتي ربيعاً من الحبّ واللذة الجسدية، فالآن أصبحت أعيش في صحراء قاحلة من الملذات مع صديقتي الجديدة، وأقول لقد غادر النوم جفون عيني، من كثرة التفكير فيها،

حتى يمكن القول أصبحت شخصاً غريب الأطوار؛ إذ أحببتها حبّاً صادقاً ملأ شغاف قلبي، ولم تعد غايتي منها الحصول على اللذة العابرة المؤقّتة. فصاحت اللوحة مبتهجة:

- يا سلام، يا سلام.

توقّف الشاب عن القراءة، وقال:

- ما الأمر، يا خرساء؟

- لقد وقعت في فخ الحب العذري أخيراً، وأشتمّ من هذه الكلمات رائحة طيبة.

- هكذا يبدو لي أنا أيضاً.

وقالت اللوحة مثنية على نسرين:

- أحسنتِ يا نسرين.

أجاب الشاب :

- انتصار آخر، للنساء على الرجال، ولكن هذه المرة ليس في حارتنا، بل في حارة أخرى.

وتابع جنكيز قراءة مذكرات كريم:

عندما رأيت نسرين، كان في نيّتي أن أحصل على المتعة الجنسية معها، لكنّها ابتعدت عني، وكلما أردت الاقتراب منها، أو الاتصال بها

هاتفيّاً لنلتقي في المعهد، أو في الشارع، كانت تصدّني وتبتعد، ولا تـردّ عليّ، ولا تلقي لي بالاً، فأصبحتُ مثل الكلب البوليسي المسعور، وكنـت أمشي في الشارع، أو في البيت، أتكلمُ مع نفسي في شرودٍ متواصل:

- أين أنتِ، يا نسـرين؟ ماذا تفعلين الآن؟ ومتى نلتقي ثانية، يا حبيبتي الدلوعة؟

فقررت أن أشرب العرق، وأثمل كي أنسى وجعي وألمـي الـذي كان يحرقني من الداخل، ولكن تحت ثمل العرق البهيمي، مـا كانـت صورة نسرين تفارق خيالي ولو لثانية واحدة، وما كانت تتركني أرتاح، وقررت مرّة أخرى، أن أجرّب طريقة غيرها، ربـما أكثـر فاعليـة مـن الأولى. فهرعتُ إلى الكازية، واشتريتُ لتراً من البنزين الممتـاز سريـع الاشتعال، وعدت مهموماً مغموماً إلى البيت، وطيف الحبيبة الغاليـة نسرين لم يفارقني لثانية واحدة. كانت دائماً معي كظلي، تلازمني مثـل روحي، ثمّ أفرغت محتوى العلبة على جسدي، حتى أصـبحت مـبللاً بالكامل، ومددت يـدي إلى درج موقـد الغـاز، فأخرجـتُ القداحـة الحمراء، وبدأت بالكبس على زر الإشعال، ولكـن القداحـة أبـت أن تشتغل، أمام لهيب حبّ نسرين المستعر، ورفضتْ أن أُحرق نفســي، وأتخلّص من عذاب الحبّ الموجع. ولكن صورة العشيقة نسرين ظلت تتدفق باستمرار على مخيلتـي، وكانـت تـداعبها باسـتمرار متواصـل،

ولكن لم يعرف اليأس من الانتحار طريقه إلى قلبي المجروح، وقررت هذه المرة الانتحار بطريقة الشنق بالحبل.

وفي اليوم الثالث من المحاولات، وجدت طريقة الشنق بالحبل أفضل الطرق، ففتّشت الغرفة كلّها بحثاً عن حبل للشنق، فلم أجد شيئاً في البيت. فجأة خطرت على بالي هدايا صديقتي الشبقة تمر حنة التي كنت أخفيها في كيس أسود تحت السرير، فأخرجتُ لفحة الرقبة المعطرة التي أهدتني إيّاها في أحد لقاءاتنا السرية.

شددت اللفحة حول رقبتي، بإحكام، ثمّ شعرت بالاختناق الحقيقي هذه المرة، واسودّ كل شيء أمام نظري، ولكنْ ظلت صورة المعبودة والقديسة نسرين تعاود الظهور أمامي في تلك الظلمة، فتضيء لي عتمة حياتي وتبعث فيّ الأمل من جديد، وتحثّني على حبّ الحياة والتعلّق بها كُرمى لحبيبتي نسرين، وتدفعني إلى السعي وراءها وعدم اليأس من صدّها.

فقالت اللوحة :

- توقّف، لقد أحرقت قلبي، أيها الشاب المسكين.

- بأمركِ سيدتي.

- الحبّ عذاب.

- من ذاق ذاب.

- ولكن لماذا كنت تريد أن تقتل نفسكَ؟

- لأنها هجرتني، وأصبحت تكرهني.

- أنت الذي دفعتها للقيام بذلك.

- أعترفُ بذلك. وإنّي نادم أشدّ الندم على ذلك الأسلوب الملتوي.

- أحسنتَ. تابع، أيها الفتى المقهور.

- حاضر سيدتي:

ومثل حيوان مفترس، رحتُ أدور حول مكان إقامتها في السكن في حركة دائمة وقلقة، وبعد مرور ساعات طويلة من المرابطة والانتظار، تكللت جهودي بالنجاح، ولم تذهب أدراج الرياح. لقد خرجت الحبيبة نسرين، وهي متأنقة.. جميلة.. حلوة.. جذّابة.. وكاد قلبي يذوب داخل صدري من الفرحة، فارتفعت حرارتي، حتى شعرتُ بنوبة حمّى قاتلة تجتاح كياني، وأنا أراها في الواقع ثانية.

ومع كل محاولة مني لأمشي معها، كانت تتقدمني في المشي، وتترك مسافة خطوتين، بيني وبينها، كنت أصيح بصوت مرتعش وخائف: يا نسرين، اجعليني حذاءً في قدميكِ، ولكن ارضي عنّي، اغفري لي يا معبودتي، فأنا المخطئ بحقكِ يا حبيبتي. وتستمرّ نسرين في المشي،

ولا تأبه لتوسّلاتي. وأتابعُ: نسرين اجعليني خادمك المطيع، أحمل عنك حقيبتك الكتفية التي تحملين فيها أدوات تبرّجك. لكنّها لا تهتم بما أقول.

ومن تلك التوسلات المستمرة التي كنت أناجيها طوال الوقت: أناشدك بالله يا كليم الرب أن تساعدني، أناشدك بالله يا روح القدس أن تساعدني، أناشدك بالله يا خاتم الأنبياء أن تساعدني، وأقول آه، حتى الصخر القاسي يتشقّق، ويخرج الماء من جوفه، ولكنّ قلب نسرين بدا لي أقسى من الحجر الأصمّ.

ومع هذا لم أيأس، وتابعتُ متوسّلاً: دلوعتي نسرين، سأنتحر من أجلك إذا لم تَعفي عني يا حبيبتي الغالية. بَيْدَ أنّ هذه الوسيلة لم تُجدِ نفعاً معها أيضاً. فوضعتُ نصل سكّين حادّ على ذراعي، وقلتُ لها: انظري، سأنتحر من أجلك، سأقطع شرياني، ويتدفّق دمي قرباناً ربانياً، من أجل أن يعود حبنا مثل الأول. فأبطأت في المشي، والتفتت نحوي.

عندها أحسستُ أن تغيّراً ما أصابها، ورقّ قلبها لحالي بعد معاناة مريرة مني لأرضيها لتعفو عني. وأخيراً، نجحتُ وعادت المياه إلى مجاريها، بيني وبين صديقة المعهد نسرين الدلوعة.

الفصل التاسع

الاعتراف الثالث

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الشاب جنكيز نشيطاً، وبعد أن تناول طعام الفطور، رفع الستارة عن لوحته الجميلة، وألقى عليها تحيّة الصباح، ثم قال لها:

- هل أنت مستعدّة يا حلوتي لسماع الاعتراف الثالث؟

قالت اللوحة :

- أُراهِن على أنّ هذا الاعتراف سيكون الأخطر من نوعه على الإطلاق. ما رأيك، أيها الشاب المغامر؟

- لا أعرف.

- لا تعرف؟

- بلى.

أَحسَّ الشاب جنكيز بأنه أخطأ، عندما اعترف أمام اللوحة بأنه لا يعرف، أليس هو صاحب هذه المغامرات الملتهبة!! فقال:

- لا تستعجلي يا لوحتي، ولا تستَبِقي الأحداث.

- ولكنّ القصّة تشدّني لمعرفة المزيد.

- إنّ مغامراتي مليئة بالتشويق، والإثارة الجنسية.

- في الاعتراف الأول، كنتَ متوحّشاً همجياً.

- نعم، ولكنّ ثمّةَ ظروفاً قاسية دفعتني لأقوم بذلك العمل.

- ما تلك الظروف، يا أيها الشاب؟

- حركات تمر حنة الشبقية هي التي أثارتني وجعلتني أنجذب إليها من دون وعي.

- لا تبرّر أعمالك، يا صديقي الشاب.

- كما تشائين، يا لوحتي.

فقالت اللوحة بشوق:

- هيّا ابدأ، واقرأ الاعتراف الثالث.

- أنا جاهز.

- هيّا.

- حاضر.

وشرعَ يقرأ الاعتراف الثالث من دفتر ذكريات صديقه كريم المغامر العاشق:

جرت عادتي في نهاية كل أسبوع من دوام المعهد المتوسط الزراعي بمدينة الحسكة، وفي أيام العطل بين الفصلين وفي العطلة الصيفيّة أن أزور أهلي، وصادف في أثناء تأزّم علاقتي مع نسرين وصدودها عني أن تعرفتُ إلى إحدى جاراتي.

كانت فتاة مراهقة، قصيرة القامة، ذات جسم برونزيّ مصقول مكتنز، وكانت رائحة عطرها الفوّاحة تهيّجني وتثير شهوتي وكل غرائزي الجنسية، وكان يُجنّ جنوني كلما التقيت بها في الشارع، أو على باب دارها وهي مرتدية تلك الملابس الفاحشة الضيّقة التي تخدش الحياء.

في الأسبوع الأول الذي تعرّفت فيه إليها، لم يحصل بيننا شيء من الحميمية، فقط أخذت منها رقم الجوّال، ثم رحتُ أتواصل معها هاتفيّاً، علّها تعوّضني عن هجران الحبيبة نسرين، وكنت أغازلها بكلام رقيق، وأتصنّع الهيام بها، وأبدي إعجابي بمفاتنها، وأفصح لها عن رغبتي في وصالها، وتقبيلها ومعاشرتها.

وكانت هذه الجارة المراهقة تتماهى معي، وتذوب بسحر كلماتي، وتتأوه آهات حارّة تزيدني احتراقاً. وعند عودتي الثانية إلى مدينتي، كانت الطبخة قد نضجت، وأصبحت جاهزة للالتهام.

فقالت اللوحة:

- توقّف إكراماً لله، توقّف، يا أيها الشاب.

- ماذا حصل يا لوحتي؟ ما زلنا في بداية الاعتراف!!

- إنني أشتمّ رائحة طبخة كريهة هذه المرّة.

- نعم، لقد تحرك هرمون الخيانة الذكرية لنسرين.

- هل هي متوافرة عند كل الذكور، أو عند بعضهم فقط؟

- غالباً، يكون هرمون الخيانة الزوجية متوافراً عند معظم الرجال.

وسأل الشاب اللوحة:

- وهل النساء أيضاً يملكْنَ هرمون الخيانة الزوجية؟

ردّت اللوحة بعصبية:

- عند نسبة قليلة منهنّ فقط.

- رجاء، ثمّ رجاء، لا تقاطعيني عند القراءة.

- كما تريد، لن أقاطعك، تابع من فضلك.

- حسناً .

وتابع جنكيزُ القراءةَ من مذكّرات كريم:

أخذتُ موعداً مع جارتي المراهقة للالتقاء بها خفية في بيت أحد أصدقائي، فوافَقَت على الفور وبلا تردّد. وفعلاً تمّ اللقاء بيننا، واستمتعنا

بكامل الوقت، من اللحظة الأولى حتى الأخيرة، في عناق حارّ وساخن، وتقلبات جسدية لا تُحصى، وطبعتُ قبلة الوداع على خدودها المكتنزة.

ثم التقيتُ بها لقاءين ساخنين آخرين، انفردنا فيهما، ومارسنا الجنس السطحيّ، ونلنا كثيراً من اللذات والمسرّات.

فقالت اللوحة :

- لقد بدأت الأمور تتأزّم معك، يا أيها الشاب.

- لماذا؟

- أنت مخادع، وغشاشٌ حقير ولست مخلصاً في حبّك. فالمُحبُّ الحقيقي لا يبحث عن اللقاء الجسدي، وتغلب عليه الأشواق واللهفة للقاء المحبوب.

ولكن الشابّ جنكيز ظلَّ صامتاً، ولم يعلّق على ما قالته. فتابعت اللوحةُ قائلةً:

- أنت تلعب على الطرفين، وهذا خطيرٌ جداً، وبرأيي ستخسر الطرفين.

أيضاً لم ينبس جنكيز ببنت شفة. فقالت اللوحة:

- لماذا لا تردّ عليّ أيها الشاب؟ حسناً، أكمل باقي الاعتراف، كي نصل إلى النهاية.

- حاضر، جاهز.

وبعد مرور شهر من لقائي الأخير مع جارتي المراهقة تحسّنت علاقتي بحبيبتي نسرين، وصفحت عني -كما رويتُ لكِ- وأبدت قبولها من الزواج بي.

فطلبتُ من أهلي أن يتقدّموا لخطبتها، بعد أن شرحت لهم شدّة تعلقي بها، ورويت لهم كثيراً عن سلوكها وجمالها. ووافق الأهل جميعاً على خطبتي من الشابّة نسرين، وقد شعر أهلي بتعلّقي الشديد بها، وأدركوا أنهم إنْ عارضوا خطبتي، وتدخلوا في إفشالها، فإنني حتماً سأكون في عداد الأموات، أو يكون مصيري الجنون كمصير العشاق الذين ملأت سيرتهم الدنيا.

وبناء على رغبتي، تقدّم أهلي لخطبة الشابة نسرين، وتمت الخطبة بالاتفاق بين أهلي وأهلها.

توقف الشاب عن قراءة الاعتراف، ثم قال:

- ما رأيك يا لوحتي حتى الآن؟

- إلى الآن، تجري الرياح بما تشتهي السفن.

وتابعت اللوحة:

- ولكنني أخاف من جارتك المراهقة.

- لا تخافي يا لوحتي.

- تابع أيها الشاب .

- حسناً .

كنتُ أعيش أجمل لحظات العمر مع خطيبتي نسرين الدلوعة، وبدأنا بتجهيز ما يلزم من الأدوات، استعداداً ليوم الزفاف، وقد ارتأينا أن يكون موعد زفافنا بعد أسبوعين من تخرّجنا في المعهد الزراعي. ورحتُ للهفتي أَعدّ الساعات المتبقية لموعد الزفاف، وكانت حبيبتي نسرين أيضاً تعيش أحلى اللحظات وأجملها، وهي تترقب مثلي ساعة الاحتفال الأخير.

فقالت لوحتي:

- كل شيء على ما يرام.

ردّ الشاب:

- بالطبع، يا لوحتي الجميلة.

واستمرّ يقرأ من دفتر كريم:

عُدت من الحسكة إلى منزل أهلي قبل امتحاناتنا النهائية، وأنا سعيد مستبشر باقتراب موعد الزفاف، على أمل أن أُعِدّ مع أهلي اللوازم لمراسيم الزفاف، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وانكشف الغطاء عن المستور.

استقبلتني أمي بوجه عابس، وجبين مقطّب، وأخبرتني أنّ ابنة الجيران المكتنزة حامل، وبأنها أطلعتْ أمَّها على تلك اللقاءات الجسدية التي كانت تجري بيننا.

وهنا جنّ جنوني، فأنا لم أرتكب شيئاً خطيراً، ولم أقترب من موطن عفّتها الذي أسميه كهف الحياة. فأنكرتُ ذلك بشدّة، ولكنّ أبي وأمي لم يقتنعا بهذا الكلام، وأصرّ أبي مع جارنا والد الفتاة على الذهاب إلى طبيب نسائي لفحص الفتاة، هل هي حامل، أم تدّعي الحمل غَيرةً؛ لأنها على علمٍ بموعد حفلة الزفاف القريب.

قاطعتْ لوحتي القراءةَ، وقالت:

- لقد وقعت في الفخ أخيراً، يا أيها الشاب.

فقلت في نفسي:

- بمَ أجيب اللوحة؟

وقالت اللوحة:

- ماذا أصابك يا بنيّ، هل عاودتك نوبة الخرس مرة أخرى؟

- لا.

- أنتَ في وضع حرج.

- نعم.

– تابعِ القراءةَ، ولتكشف عن المستور، لأنك تتهرّب من الإجابة.

تابع جنكيز القراءة:

ذهبنا إلى الطبيب المختصّ جميعاً، فعاين الطبيب الفتاة المكتنزة مستعيناً بجهاز(الإيكو) الذي كان أمامه على الطاولة، وكان يدقّق في وجوهنا الواحد تلو الآخر، ثم أشار برأس القلم إلى نقطة بيضاء كانت تبدو على شاشة الإيكو السوداء، وقال:

– الفتاة حامل في الشهر الرابع، وها هو الجنين يتحرك.

– كيف ذلك؟! لم أقترب من كهف الحياة؟

ضحك الطبيب، وهزّ رأسه قائلاً:

– نعم إن غشاء البكارة سليم، ولم يتمزّق. ولكنّ النطاف المنوية قد تسربت عبر غشاء البكارة ولقّحت البويضة.

عضضت على أصابعي ندماً، وقلت للجميع:

– لم أرتكب أيّ خطأ مع الفتاة يا جماعة.

تحرّك الطبيب نحو النافذة، ثمّ قال:

– أنت المسؤول يا بني، وعليك أن تصلح خطأك، وتتدارك الأمر، فأنت والد الجنين الراقد في بطن الفتاة.

قاطعت اللوحةُ الشاب جنكيز مجدّداً قائلة:

- أرجوك يا بنيّ كفّ عن القراءة قليلاً، فما عدت أحتمل السماع.

فقال لها جنكيز:

- كما تشائين يا لوحتي العزيزة.

الفصل العاشر
النهاية

بعد مضي ساعة من الوقت، قالت اللوحة لجنكيز:

- هلّا تابعت القراءة يا بنيّ، فقد هدأت أعصابي قليلاً.

فأجابها الشاب:

- أبشري يا غاليتي. وشرع يقرأ في دفتر صاحبه:

وبعد العودة من عيادة الطبيب إلى المنزل، ربّت أبي ظهري، وقال:

- يا بنيّ، إنها زوجتك منذ الآن، وهذا الولد ولدك.

- ماذا تقول بحقّ السماء يا أبي؟

- أعي ما أقوله لك يا ولدي، إنها زوجتك على سنة الله ورسوله، ثمّ قرأ الفاتحة.

وتدخّلتْ أمي فقالت:

- وماذا بشأن خطيبته نسرين؟ فالزفاف على الأبواب!!

فقال أبي بصوت هادئ:

- نفسخ الخِطبة، وينتهي كل شيء.

فقلت لأبي وأمي:

- الموت أهون عليّ من أن أتخلّى عن نسرين.

فقالت اللوحة لجنكيز:

- يا للكارثة.

- أعرفُ جيّداً أنّها الكارثة.

- وماذا بَعْدُ يا أيها الشاب الخطير؟

كان الشابُّ جنكيز قد وصل إلى الصفحة الأخيرة من دفتر ذكريات صديقه الرّاحل كريم، وصُعِق حين قرأ للوحته العبارة الأخيرة التي خطّها كريمٌ في دفتره:

- إنّ الله يُمهِل ولا يُهمِل.

أجهش جنكيز بالبكاء، حين تذكّر نهاية صديقه كريم، وقال في نفسه: حقّاً إنّ الله يُمهل ولا يُهمل. رحمك الله يا صديقي، وكأنّك كنتَ تُحسّ بدنوّ أجلك، وأنّ عقاب الله سَيَطالُكَ، فتموت تلك المِيتة الفظيعة.

ثم نهض وودّع لوحته، وغطّاها بالملاءة الحمراء المخملية، وخرج يتجوّل في ساحة حارة البراكيل.

الفهرس

الإهداء 5
الفصل الأول بائع اللوحات المتجوّل.........................7
الفصل الثاني أصدقاء المعهد...............................22
الفصل الثالث الـحـــادث 35
الفصل الرابع مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ 48
الفصل الخامس الحديث مع اللوحة 57
الفصل السادس العريس وراء قضبان السجن 63
الفصل السابع الاعتراف الأول 72
الفصل الثامن الاعتراف الثاني................................83
الفصل التاسع الاعتراف الثالث...............................92
الفصل العاشر النهاية......................................102
الفهرس...104

هـذا الكتـاب

(المغامر العاشق) رواية تتحدث عن شاب من القامشلي يدعى جنكيز يعيش في حارة شعبية تسمى حارة البراكيل .

اشترى هذا الشاب لوحة لفتاة ووضعها في غرفته ، ثم سافر إلى الحسكة ليكمل تعليمه في المعهد الزراعي ، و هناك تعرف إلى صديقه المغامر (كريم) ، ونشأت بينهما صداقة متينة .

وبعد أن أتما دراستهما و في طريق عودة كل منهما إلى بيته وقع حادث أليم أودى بحياة المغامر كريم الذي خلف لزميله جنكيز دفتر مذكرات دوّن فيه مغامراته العاطفية.

وحين دخل جنكيز غرفته فوجئ بأن اللوحة الخرساء التي تركها قبل رحيله بدأت تتحدث، فراح يقرأ على مسامعها مغامرات صديقه من دفتر مذكراته على انه هو صاحب هذه تلك المغامرات، و يوما بعد يوم بدأنا نتعرف إلى شخصية كريم وما انطوت عليه من خلل وفساد داخلي حتى انتهت حياته تلك النهاية المأساوية.

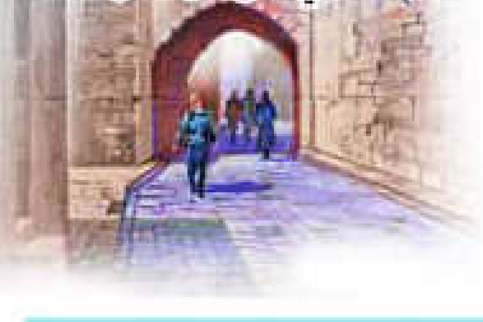

هاتف : 2228949 (21 963 +)
فاكس : 2228237 (21 963 +)
موبايل : 332675 (933 963 +)
daralnahj94@yahoo.com

دار النهج
سوريا ، حلب